تنوع السياق القرآني
في وصف سكون القلب

إعداد

د. رباب صالح جمال

مدخــل

الحمد لله الرحمن الذي علم البيان، والصلاة والسلام على سيد الأنام، وعلى آله وصحبه الكرام..

أما بعد..

فالتجديد في البلاغة أيا كان جنسها لا يمكن أن يوجد وينمو إلا إذا كان مبنيا على أصولها؛ أي: لا يولد إلا من رحمها، وإلا لأصبح التجديد بناءً لا أساس له.

ومن صور التجديد توسيع مجال القاعدة لتضيء نواحي كانت مجملة أو خفية، ولعل البحث موضوع الدراسة من هذا القبيل، فقد ذكر الخطابي في رسالته: "بيان إعجاز القرآن" أن عمود البلاغة هو وضع اللفظ في المكان الأخص الأشكل به الذي إذا وضع غيره مكانه نشأ عنه فساد الكلام أو ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة(١) ثم شرح أن هناك ألفاظاً متقاربة المعاني عند أكثر الناس غير أن " لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها "(٢) مثل العلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح ونحوها.

وجاء الإمام عبد القاهر الجرجاني وذكر أن للمعنى العام الواحد الذي سماه الغرض هيئات مختلفة سماها صورة المعنى، واستشهد على ذلك

---

(١) ينظر أبوسليمان حمد بن محمد الخطابي : بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٢٦.

(٢) المرجع السابق المصدر السابق نفس الصفحة .

بشواهد كثيرة مثل الفرق بين زيد كالأسد، وكأن زيدا الأسد(١)، وبين (الطبع لا يتغير)، وقول الشاعر :

يراد من القلب نسيانكم　　　وتأبى الطباع على الناقل(٢)

بل إن منهجه في سائر كتابيه قام على التفرقة بين هيئات المعنى الواحد ، والموازنة بين دلالتيهما، غير أنه لم يتناول اختلاف هيئات المعنى المختلفة للغرض الواحد في نص كامل كالقرآن الكريم أو شعر أحد الشعراء.

وقد استوقفني وأنا أقرأ كتب التفسير أنها تفسّر بعض هيئات المعنى للغرض الواحد على طريقة الترادف، ومن ذلك تفسيرها لمعنى الطمأنينة بالسكينة، والأمن بالاطمئنان، والسكينة بالطمأنينة، والربط على القلب كذلك. والغرض العام في هذه التعبيرات ومثيلاتها، مثل التثبيت أو تثبيت القدم، أو نفي الخوف هو" سكون القلب"، وهذه الألفاظ والتراكيب بالتأكيد تتباين وتتغاير هيئة معنى كل منها عن الغرض العام وهو السكون، و تتغاير هذه الهيئة حسب سياقاتها، وحسب الصيغ التي جاءت فيها، بل وتتراوح بين الحقيقة والمجاز.

وبتأمل سياقاتها في القرآن الكريم تتضح الفروق بين صور معانيها، والمواقف التي تتطلب كلا منها، والنكات البلاغية وراء استئثار كل سياق بإحداها دون الأخرى، وبهذا ينفتح باب للتحليل ألمح إليه الخطابي،

---

(١) ينظر: الإمام أبو بكر عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ص ٢٥٨.

(٢) المصدر السابق ص ٤٢٣ وما بعدها.

ووضحه الجرجاني خلال شرحه لنظرية النظم، و امتد هنا شوطاً آخر ليبحث تحليل هيئة المعنى في التعبيرات المختلفة للغرض العام في القرآن الكريم.

وقد جمعت الآيات التي تذكر الأمن، والاطمئنان و تثبيت الأقدام، والربط على القلب، والسكينة، ونفي الخوف، وتدبرتها لاستخراج دلالاتها، وإدراك الفروق بينها، معتمدة على تفسير القرآن، وما ذكرته كتب اللغة، وما وصل إليه اطلاعي مما يتعلق بالموضوع.

ودراسة الفروق بين هيئات المعنى المختلفة للغرض العام الواحد يفتح أيضا في الأدب شعراً ونثراً مغاليق ما جاشت به نفس القائل، فوصف الأديب الغرض الواحد بهيئات معنى مختلفة إنما ينبعث من حال النفس التي تعتريها أحوال متباينة وبجمع كل صور معانيه للغرض الواحد يتبين من خفايا وخبايا نفسه ما لا يظهر حال النظر إلى هيئة كل معنى منفردة.

تمهيد

من البدهي أن سكون القلب يتفاوت قوةً وضعفاً، ويختلف جهةً وسبباً، فقد يأتي بعد خوف أو اضطراب على مال أو مصلحة، أو بعد حركة وانزعاج، وقد يكون السبب معلوماً مثل اطمئنان إبراهيم عليه السلام لرؤية آية إحياء الموتى ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾، ورؤية الحواريين للمائدة المنزلة من السماء ﴿نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ ، وذكر الذين آمنوا لله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾، وقد يكون على جهة لا يعلمها إلا الله، مثل جعل بيت الله الحرام آمنا ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ ، وإنزال السكينة ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، والربط على القلوب ﴿لَّوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾.

وجاء في وصف سكون القلب ألفاظ الأمن والسكينة والاطمئنان، وتعبير الربط على القلوب، وتثبيت الأقدام، ونفي الخوف. وقد شرح المفسرون على جهة التسامح معنى كل منها بالآخر كما سيتضح. ومن ذلك على سبيل المثال قول الألوسي في تفسير السكينة في آية الفتح : " ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، أي: الطمأنينة والأمن وسكون النفس والربط على قلوبهم"⁽¹⁾، والحقيقة أن ليس هناك لفظ أو تعبير في لغة العرب يشبه الآخر تماما في المعنى فضلا عن القرآن الكريم المعجز، وإلا كان في القرآن – حاشاه – ما يغني غيره عنه.

---

(١) العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج٢٦ ص١٠٨.

الأمـــن :

الأمن في اللغة كما يقول ابن فارس : " الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان، أحدهما الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر التصديق "⁽¹⁾، فذكر الأمانة في معنى سكون القلب مقابل الخيانة إشارة إلى أن السكون يتحقق هنا بانتفاء أسباب الخوف وهو الخيانة، فالمعنى الأصل سكون القلب بانتفاء أسباب الخوف، وإليه يشير ابن منظور في قوله : " الأمان والأمانة بمعنى... والأمن ضد الخوف... ورجل أمنة... يأمنه الناس ولا يخافون غائلته... المؤمن في صفة الله الذي آمن الخلق من ظلمه وقيل : المؤمن الذي آمن أولياءه عذابه "⁽²⁾، ويشير اسم الله تعالى المؤمن إلى نفي الظلم والعذاب وكل ما يخشى منه. ولا يعكر عليه تفسير من فسر معنى الأمن بالطمأنينة كالأصفهاني والفيومي ؛ لإشارة الأول إلى انتفاء الخوف في قوله: " أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف "⁽³⁾، والثاني إلى انتفاء المكر في قوله: " الأصل أن يستعمل في سكون القلب... وأمن البلد اطمأن به أهله فهو آمن وأمين وهو مأمون الغائلة أي: ليس له غور ولا مكر يُخشى"⁽⁴⁾، فإن الأصل كما قالوا: سكون القلب مما يُخيف ويُقلق من الغوائل والأذى والعذاب ونحوه، وإلى ذلك يُشير بعض

---

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا : معجم مقاييس اللغة، ج١ ص١٣٣ .

(٢) الإمام جمال الدين بن منظور: لسان العرب، ج١٣ ص٢١ – ٢٦ مادة (أمن).

(٣) الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن، ص٣٠٧.

(٤) أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري : المصباح المنير ص٢٠.

الكتاب المحدثين في تعريفه للأمن⁽¹⁾ فالأمن " هو ما تبحث عنه النفوس في كل شأن من شؤون الحياة كالأمن في الأوطان والأمن على الأعراض والأمن على الأموال والممتلكات وغيرها "⁽²⁾. وبهذا دعا إبراهيم عليه السلام، لمكة حيث ترك زوجته وابنه إسماعيل عليه السلام، وهو طلب يشير إلى أنه ضرورة حتمية للإنسان حتى قبل وجوده⁽³⁾، يقول تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ١٢٦]، فإبراهيم عليه السلام سأل ربه للبيت الحماية والصيانة من الخوف من الجبابرة والمسلطين، ومن عقوبات الله من خسف وانتقال وغرق وغيرها، من المثلات التي تحل بالأمم⁽⁴⁾. وقد ذكر المفسرون تقديرات عدة لمعنى إسناد الأمن للبلد، فقدر بعضهم أنه إما على معنى (ذو أمن) كعيشة راضية على سبيل مجاز الحذف، أي: حذف المضاف، وإما على معنى: آمنا أهله كقولهم: ليل نائم⁽⁵⁾، ولكن بعضهم قاس المعنى الثاني

---

(١) ينظر د. عبد الله آل عائش :التربية الأمنية ص٢٧ عن د.عاطف عجوة، مقال بمركز العربي للدراسات الأمنية الرياض ١٤٠٦ هـ ص ٨٤ .

(٢) د. عبد الله آل عائش :التربية الأمنية ص٢٧ عن د. سعيد الشويعر : أثر الإيمان في إشاعة الأمن، المركز العربي للدراسات الأمنية – الرياض ص ١٢٣.

(٣) د.عبد الله بن حلفان آل عايش : التربية الأمنية في الإسلام ص ١٨٤– ١٨٥.

(٤) ينظر الطبري ج ١ ص ٥٤١، ابن عطية ج ١ ص ٢٠٩، الرازي ج ٤ ص ٤٩، الألوسي ج ١ ص ٣٨١.

(٥) ينظر الزمخشري ج ١ ص ٢١٢، الرازي ج ٤ ص ٥٠، البيضاوي ج ١ ص ٣٩٩، أبو السعود ج ١ ص ١٥٨، الألوسي ج ١ ص ٣٨١، الطاهر بن عاشور ج ١ ص٧١٥.

وهو الأمن لأهله على قولهم: (ليل نائم)(١) وهو مجاز عقلي، وبعضهم وهو الأشهر على قوله تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾(٢)، وهو مجاز لغوي مرسل، سماه الطاهر مجازاً عقلياً(٣)، إلا الشوكاني فإنه قاس الأمن لأهله بقوله تعالى﴿ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴾ فقال: "والمراد الدعاء لأهله من ذريته وغيرهم كقوله : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١ ﴾[الحاقة: ٢١] أي : راض صاحبها"(٤). ومع اختلاف كل هذه التقديرات لاختلاف وجهة نظر كلٍ منهم إلى متعلق الأمن، إلا أنها تفيد معنى المبالغة بما ليس في وصف أهله فقط، وذلك لأن طلب الأمن للبلد وليس لساكنيه يوحي بأن من صفات هذا المكان ومقومات وجوده تمكن حلول الأمن في أرجائه، وسكون قلب ساكنيه بانتفاء كل ما يزعج بقاءهم ومصالحهم.

وجاء الدعاء بجعل البيت آمنا هنا بتنكير (بلدا)، وفي سورة إبراهيم بتعريفه في قوله تعالى ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وذهب الرازي في تعليل ذلك إلى أن تعريف البلد هنا وتنكيره هناك قد يعود " لوجهين، الأول : أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد: اجعل بلدا، كأنه قال: اجعل هذا الوادي بلدا آمنا... والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلدا فكأنه قال: اجعل هذا المكان

---

(١) ينظر الزمخشري ج ١ ص ٢١٢، البيضاوي ج ١ ص ٣٩٩، أبو السعود ج ١ ص ١٥٨.

(٢) ينظر الرازي ج ٤ ص ٥٠.

(٣) ينظر الطاهر بن عاشور ج ١ ص ٧١٥.

(٤) ينظر الشوكاني ج ١ ص ١٤١.

الذي صيرته بلدا ذا أمن وسلامة كقولك: جعلت هذا الرجل آمنا، الثاني: أن تكون الدعوتان وقعتا بعد ما صار المكان بلدا، فقوله: ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ تقديره: اجعل هذا البلد بلدا آمنا، كقولك: كان اليوم يوما حارا، وهذا إنما تذكره للمبالغة في وصفه بالحرارة؛ لأن التنكير يدل على المبالغة، فقوله: "رب اجعل هذا بلدا آمنا" معناه: اجعله من البلدان الكاملة في الأمن. وأما قوله: "رب اجعل هذا البلد آمنا فليس فيه إلا طلب" الأمن لا طلب المبالغة "(١). ورجح ابن كثير الرأي الأول بدليل ذكر إسحاق عليه السلام في آخر الدعاء، يقول: " قال في هذه السورة: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة: ١٢٦] وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة، وقال في سورة إبراهيم ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ وناسب هذا هناك لأنه - والله أعلم - كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة، ولهذا قال في آخر الدعاء﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾"(٢).

وبهذا المعنى أي: سكون القلب لانتفاء أسباب الخوف والاضطراب والقلق جاء ذكر الأمن جعلا لبيت الله الحرام وهو أول مكان حظي به من قبل الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥].

---

(١) الرازي ج ٤ ص ٥٥.

(٢) ابن كثير ج ١ ص ١٧٥، و ينظر ج ٢ ص٥٤١ آية إبراهيم ٣٥.

فالناس فيه لا يخافون على أنفسهم، فلا يؤخذ أحد بجريرته وهو داخل الحرم إلا إذا قتل داخل الحرم⁽¹⁾، ويأمنون من التخطف والسبي⁽²⁾، ومن القحط والجدب⁽³⁾، فساكن البيت ساكن القلب من كل مخوف؛ لانتفاء أسباب الخوف من عقوبة أو سبي أو خطف أو جدب وقحط. ومع أن بعضهم كالطاهر بن عاشور⁽⁴⁾ ذهب إلى اختصاص هذا الحكم بأهل الجاهلية امتنانا منه تعالى عليهم؛ حيث لم يكن لهم شريعة تحميهم وتنظم أمورهم، فكانت رحمة البيت تحفظهم وتدفع عنهم عدوان المعتدين، إلا أن جعل البيت أمناً واقع قائم إلى يومنا هذا، بل ويمتد إلى أمن الطير والوحش فيه⁽⁵⁾. وفي جعل البلد أمناً - على المصدر- وليس آمنا كآية الدعاء مبالغة في تحققه⁽⁶⁾، فكأن الأمن تجسد واقعاً في البلد، وهذا المعنى أشار إليه

---

(١) ينظر الطبري ج١ ص٥٣٤، الزمخشري ج١ ص٢١١، ابن عطية ج١ ص٢٠٧، الرازي ج٤ ص٤٣، ابن كثير ج١ ص١٦٩، البيضاوي ج١ ص٣٩٨، أبو السعود ج١ ص١٥٧، الألوسي ج١ ص٣٧٨.

(٢) ينظر الطبري ج١ ص ٥٣٤، ابن عطية ج ١ ص ٢٠٧، ابن كثير ج ١ ص ١٦٩، البقاعي ج ٢ ص ١٥٣، البيضاوي ج ١ ص ٣٩٨، الألوسي ج ١ ص ٣٧٨.

(٣) الرازي ج ٤ ص ٤٣.

(٤) ينظر الإمام محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير و التنوير ج ١ ص ٧٠٩.

(٥) ينظر ابن عطية : المحرر الوجيز ج١ ص٢٠٧، و ينظر الرازي ج٤ ص٤٤، أبو السعود ج١ ص١٥٧، الألوسي ج١ ص٣٧٩.

(٦) الطاهر ج١ ص ٧٠٩.

سيبويه في قول الخنساء: فإنما هي إقبال وإدبار(١)، ولعل هذا للفرق بين مرتبة طلبه في الدعاء ومرتبة تحققه من رب العالمين.

وإذا كانت هيئة معنى الجعل المذكور سابقاً تصيير ووضع للأمن منه تعالى(٢) بنفي أسباب الخوف والقلق، فصورة المعنى وهيئته هنا في قوله تعالى ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾[آل عمران: ٩٧] ؛ تبين حال الداخل للبيت بعد أن صيّره الله تعالى أمناً، فهو راسخ في سكون قلب دائم، بدلالة وقوع اسم الفاعل "آمناً" خبراً لفعل الكينونة (كان) ماضيا.

والمراد بالأمن هنا انتفاء أسباب الخوف حسب قول المفسرين من أحد أمرين الأول : من أن يؤخذ الجاني فيها بجريرته، واختلفوا في كون هذا الحكم خاصاً بالجاهلية أو يدخل في عهد الإسلام(٣)، واختلف الفقهاء هل يقام عليه الحد فيها، أو يخرج منها ليقام عليه خارج الحرم؟(٤). على أن هذا الخلاف لا يعكر على ثبوت صفة الأمن للحرم(٥)؛ لأن في أخذ الجاني بجريرته تسكيناً لقلوب أهل مكة وساكنيها على أنفسهم وأموالهم ومصالحهم بزوال كل ما يخيفها، يقول الطاهر : " والأمن حفظ الناس من

---

(١) ينظر أبو بشر عمرو بن عثمان بن قمبر : كتاب سيبويه، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ ج ١ ص ٣٣٧ .

(٢) ينظر ابن منظور : لسان العرب ج١١ ص١١٠، ١١١ مادة (جعل).

(٣) ينظر الطبري ج٤ ص١٢، ابن عطية ج١ ص ٤٧٦.

(٤) ينظر الطبري ج ٤ ص ١٤، الزمخشري ج ١ ص ٤١٦، الرازي ج ٨ ص ١٣٢، ابن كثير ج ١ ص٣٨٥، أبو السعود ج ٢ ص ٦١،البيضاوي ج ٢ ص ٦٩، الألوسي ج ٤ ص ٦.

(٥) ينظر الرازي ج ٨ ص ١٣٣.

الأضرار، فتشريد الدعار وحراسة البلاد، وتمهيد السبل، وإنارة الطرق أمن، والانتصاف من الجناة، والضرب على أيدي الظلمة، وإرجاع الحقوق إلى أهلها أمن، فالأمن يفسر في كل حال بما يناسبه "(١).

والمعنى الثاني للأمن : انتفاء الخوف من النار(٢)، ويكون هذا في الآخرة، وروى المفسرون في ذلك حديث الرسول ﷺ: " من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا "(٣) ، وقوله ﷺ: " الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة "(٤)، وهما مقبرتا مكة والمدينة.

---

(١) الطاهر ج ١ ص ٧٠٩.

(٢) ينظر الطبري ج ٤ ص ١٤، الزمخشري ج ١ ص ٤١٦، الرازي ج ٨ ص ١٣٢، ابن عطية ج١ ص٤٧٧، ابن كثير ج١ ص٢٨٦، البيضاوي ج ٢ ص ٦٩، أبو السعود ج ٢ ص ٦١، الألوسي ج ٤ ص ٧ .

(٣) ينظر الزمخشري ج ١ ص ٤١٦، الرازي ج ٨ ص ١٣٢، البيضاوي ج ٢ ص ٦٩، أبو السعود ج ٢ ص ٦١، الألوسي ج ٤ ص ٧. و ينظر سنن البيهقي الكبرى ج ٥ ص ٢٤٥ حديث رقم (١٠٠٥٣)، سنن الدارقطني ج ٢ ص ٢٧٨ حديث رقم (١٩٣)، مسند الطيالسي ج ١ ص ١٢ رقم (٦٥)، المعجم الكبير ج ٦ ص ٢٤٠ رقم (٦١٠٤)، المعجم الأوسط ج ٦ ص ٨٩ رقم (٥٨٨٣)، المعجم الصغير ج ٢ ص ٨٥ رقم (٨٢٧) ، الموسوعة الذهبية وينظر تخريج الأحاديث في الزمخشري : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق ودراسة : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوّض، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م، مكتبة العبيكان – الرياض، ج١ ص٥٨٩ بهامش ٢٥٣.

(٤) ينظر الزمخشري ج١ ص٤١٧، أبو السعود ج٢ ص٦١، و ينظر المصنوع ج١ ص١٠٧، تخريج الأحاديث والآثار ج١ ص١٩٩، الحديث الثالث و العشرون، الرابع و العشرون ص ٢٠٠، المكتبة الألفية للسنة النبوية وينظر تخريج الأحاديث في الزمخشري ج١ ص ٥٨٩، ٥٩٠ بهامش ٢٥٤.

وفي سياق آخر في الامتنان على أهل مكة بنفي الخوف عنهم يقول تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣ - ٤]، ويشير الفعل الماضي (آمنهم) إلى تحقق سكون القلب من الخوف دون مبالغة كما في السياقات السابقة؛ لأن مدار الأمر هنا الحث على العبادة بعد تحقق نعمتي الأمن والرزق، وهناك الامتنان بجعل البلد أمنا وكينونته في قلب داخل البيت، وفي الجعل والكينونة تأكيد زائد على مجرد حدوث الفعل الموجود هنا، ويشير تنكير الأمن إلى أنه " عظيم لا يقادر قدره، وهو خوف أصحاب الفيل أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم "⁽¹⁾.

وفي سياق يدمج الامتنان بنفي كل أسباب الخوف والاضطراب في التهديد بالعذاب لأهل مكة، في حال عدم إيمانهم تأتي صيغة تحمل توكيداً بنفي الخوف زائدا على ما جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام، وهي إثبات التمكين لأمن الحرم في قوله عز وجل :﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [القصص: ٥٧] ، ويزيده توكيداً الاستفهام التقريري (أولم) الذي يضعهم أمام واقع الاعتراف الممهد للتهديد، والآية نزلت في الحارث بن نوفل الذي قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : " نعلم أنك على الحق ونخشى إن نحن آمنا بك أن يتخطفنا الناس " ⁽²⁾. وتجيبه الآيات بأن الله تعالى جعل مكانهم آمناً لحرمة البيت

---

(١) أبو السعود ج ٩ ص ٢٠٣، و ينظر الألوسي ج ٣٠ ص ٢٤١، الشوكاني ج ٥ ص ٤٩٨.

(٢) ينظر الطبري ج٢٠ ص ٩٤، البيضاوي ج ٤ ص ٢٩٨، أبو السعود ج ٧ ص ١٩.

الحرام تُحمى وتُصان فيه أرواحهم وحقوقهم فتسكن قلوبهم " فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ! "⁽¹⁾، ثم عقب القرآن هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨]، تعريضاً بهم⁽²⁾، وتهديداً لهم إن لم يؤمنوا، ويتبعوا الهدى شاكرين الله تعالى على نعمة الأمن، ونعمة الرزق التي كانوا فيها، فإنه سيصيبهم مثل ما أصاب هذه القرية الظالمة فتضطرب قلوبهم وتفزع نفوسهم، ومن ثم يتكدر عيشهم ويتزلزل استقرارهم.

وقريب منه التوبيخ المدمج في الامتنان في إثبات جعل الحرم آمنا عن طريق الاستفهام التقريري في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ٦٧ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، حيث يمتن القرآن على أهل مكة بنعمة الأمن على حياتهم ومصالحهم، في حين يتقاتل الناس من حولهم ويُسبَون، وتختم هذه الآية بالاستفهام الإنكاري: ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ لتوبخهم وتقرعهم على سوء تقديرهم للأمور،⁽³⁾ فيندمج التوبيخ في الامتنان ليُلمح إلى التهديد بالعقوبة على هذا الكفر بالله تعالى وجحد نعمته. وتقديم الجار والمجرور المتعلقين بفعلي: (يؤمنون، يكفرون) في قوله: (أفبالباطل، بنعمة الله) للاهتمام؛ لأنها مصب الإنكار، أو

---

(١) ابن كثير ج ٣ ص ٣٩٦، و ينظر البيضاوي ج ٤ ص ٢٩٨، أبو السعود ج ٧ ص ١٩.

(٢) ينظر ابن كثير ج ٣ ص ٣٩٦.

(٣) ينظر الشوكاني ج ٤ ص ٢١٢.

للاختصاص على طريق المبالغة؛ لأن الإيمان إذا لم يكن خاصاً لا يعتد به، ولأن كفران غير نعمته ﷻ بجنب كفران نعمته لا يعد كفراناً(١)، وفيه إظهار كمال شناعة ما فعلوا(٢).

ويأتي الوعد بتحقيق سكون القلب بزوال كل ما يهدد الأرواح والحقوق بتبديل الخوف أمناً لمن آمن به وعمل الصالحات، حيث يقول تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، ويشعر فعل التبديل بإنهاء وزوال كل أسباب الخوف ؛ لأن المبدل لا يمكن وجوده مع المبدل منه، فكأنه ينتزع الخوف انتزاعاً ليحل السكون في القلوب فتطيب الحياة، ويتحقق الاستقرار المعين على دوام العبادة. ويكفي بوعد من الله تعالى أن يكون عظيماً متحقق الوقوع، فكيف به وقد أكد بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة ! وقد أنجز الله وعده وعبدوه تعالى آمنين من إيذاء المشركين(٣).

واقتران سعة الرزق بسكون القلب بحماية الأرواح والمصالح من أجل النعم التي دعا بها الأنبياء ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وامتن بها الله على أهل مكة ﴿حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]، وكفرانها يُفضي

---

(١) يظر البيضاوي ج ٤ ص ٣٢٤، الألوسي ج ٢١ ص ١٤.

(٢) ينظر أبو السعود ج ٧ ص ٤٧.

(٣) ينظر الزمخشري ج ٣ ص ٢٥٦، ابن كثير ج ٢ ص ١٨٠، البيضاوي ج ٤ ص ١٩٨، أبو السعود ج ٦ ص ١٩١، الشوكاني ج ٤ ص ٤٨.

إلى حصول عكسها من الجوع والخوف كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ النحل: ١١٢، فاسم الفاعل (آمنة) جاء خبراً لفعل الكينونة مما يدل على رسوخ صفة الحماية من الاضطراب، يتجدد مجيء أرزاقها إليها رغداً من كل مكان - بما دل عليه المضارع- فتسبب هذا الإنعام بدلالة الفاء في جحودها وبطرها لنعمة ربها المحسن إليها، فقابل القرآن هذا التسبب الشاذ المنكر بتسبب عادل وهو نزول العقاب بها بسلب نعمة الرزق، فأصابهم الجوع، وسلب نعمة سكون القلب فاضطربت أحوالهم وتكدر عيشهم، فقال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ [النحل: ١١٢]. واستعارة الذوق لإدراك هذا الجوع والخوف، مع استعارة اللباس لإحاطته بهم بيَّن مدى شدة هذه العقوبة، فهي مدركة بأشد المدركات حساسية وهي الذوق⁽¹⁾، وهي محيطة بهم من جميع الجوانب، وفي ذلك يقول أبو السعود:" شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس الغاشي، للابس فاستعير له اسمه وأوقع عليه الإذاقة المستعارة لمطلق الإيصال المنبئة عن شدة الإصابة بما فيها من اجتماع إدراكي اللامسة والذائقة "⁽²⁾.

وفي اقتران نعمتي الأمن والرزق إشارة إلى أن أهمية سكون القلب بانتفاء أسباب الخوف من الناحية النفسية، في مستوى أهمية الطعام

---

(١) ينظر الرازي ج ١٢ ص ١٦٢، ج ٢٩ ص ٦٣ – ٦٤.

(٢) أبو السعود ج ٥ ص ١٤٥.

والشراب من الناحية الجسدية، وافتقاده ينتج حياة منغصة، ولذلك ذكر الطاهر بن عاشور أن دعوة إبراهيم عليه السلام من جوامع كلم النبوة(١). ويؤيد هذا المعنى قول الرسول ﷺ: " من أصبح معافى في جسده، آمنًا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها "(٢).

وقد توصل علم النفس الحديث إلى أهمية تحقق سكون القلب، لحماية حياة صاحبه وحقوقه، حيث يصنف "ماسلو" عالم النفس الشهير " حاجات الإنسان ويرتبها في تدرج هرمي بحسب أهميتها للصحة الجسمية والنفسية... وتجد في قاعدة الهرم الحاجات الفسيولوجية (الحاجات العضوية) التي يعتبر إشباعها أساس حياة الإنسان وحفظ نوعه، ثم يأتي بعدها الحاجة إلى الأمن الذي يعتبر إشباعها أساس الحياة النفسية والاجتماعية، تليها الحاجة إلى الانتماء والصحبة والدين والحب المتبادل، فالحاجة إلى الإنجاز والاعتماد على النفس وحب الاستطلاع والتقدير من الآخرين، ثم يأتي في قمة الهرم الحاجة إلى تحقيق الذات "(٣)، ومع ما قد يرد

---

(١) ينظر الطاهر بن عاشور ج ١ ص ٧١٥ آية البقرة ١٢٦.

(٢) صحيح ابن حبان ج ٢ ص ٤٤٦، سنن ابن ماجة (٤١٤٢) ج ٢ ص ١٣٨٧، المسند (٤٣٩) ج ١ ص ٢٠٨، المعجم الأوسط للطبراني (١٨٢٨) ج ٢ ص ٢٣٠، شعب الإيمان (١٠٣٥٨) ج ٧ ص ٢٩٣، الأدب المفرد (٣٠٠) ج ١ ص ١١٢.

(٣) د.محمد عودة محمد،د. كمال مرسي : الصحة النفسية في ضوء علم النفس و الإسلام،ص١٠٩-١١٠ و ينظر تفصيل هذا الأمر في كتاب الصحة النفسية للمؤلفين ص٧٢ و ما بعدها و MASLOW A.H The further reaches of human nature,New York. Th Viking Press,١٩٧٢.

على هذا الترتيب من الباحثين والعلماء، واعتقادهم أن لكل شخص أولويات في الاحتياج تختلف عن غيره، إلا أنهم لا ينكرون أهمية مرتبة الأمن.

وجاء الامتنان على الرسول ﷺ والصحابة الكرام بنعمة دخول المسجد الحرام مقترنة بسكون قلوبهم لحماية أرواحهم وحقوقهم في أثناء هذا الدخول؛ لتتم به نعمته عليهم في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧]؛ وأكده بنفي الخوف: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ وفي هذا يقول الرازي : " فيه بيان كمال الأمن "⁽¹⁾، فذكر سكون القلب من خوف الإضرار بحياتهم ومصالحهم وحقوقهم حال دخولهم المؤكد بالقسم ونون التوكيد للمسجد الحرام ؛ تتميم لنعمة تحقق الرؤيا بدخوله وتأكيد لها؛ لأن في ظله تطيب العبادة ويستقر المقام.

وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ٨٠ – ٨٢] امتنان على قوم ثمود بسكون قلوبهم من كل ما يزعجها حال بنائهم لبيوتهم، حيث لا تبنى الممالك ولا تستقر الدول، ولا تنشأ النهضات في غياب صيانة الأرواح والمصالح، وكذلك لا ينعم المسافر بسفره في ظل الخوف على حياته وممتلكاته، ومن هنا امتن الله سبحانه بالأمن على قوم سبأ بنفي أسبابه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا

---

(١) الرازي ج ٢٨ ص ٩١.

ءَامِنِينَ ﴾ [سبأ: ١٨] فجعل حال سيرهم أنهم ساكنو القلوب من كل ما يُخيف من قطاع طرق، أو انقطاع مؤونة أو سباع مفترسة وكل مخوفات الطريق.

وأيضاً لا يكمل أنس الضيف في موطن مضيفه إن كان هناك خوف على حياته أو مصلحته، ولذلك زاد يوسف عليه السلام في إكرام أهله حين ورودهم عليه بقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩]، فنفى عن حال دخولهم الخوف على نفوسهم من العقوبة، ومن خجل اللوم والعتاب، وذلك لما كان يعتريهم من الخجل على ما صنعوه به فطمأنهم أنهم آمنون من كل ما ينغص عليهم طيب العيش في كنفه عليه السلام.

وجاء الأمن مقصورا على أولئك المؤمنين الخلص الذين حفظوا إيمانهم من أن تشبه شائبة شرك في قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨١ – ٨٢]، والظلم الشرك لقول رسول الله ﷺ : "إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١)، فالمؤمن الحق لا شك ينعم بسكون قلبه دون

---

(١) ينظر الطبري : جامع البيان ج ٧ ص ٢٥٥، ابن عطية ج ٢ ص ٣١٥، ابن كثير ج ٢ ص ١٥٤، البيضاوي ج ٢ ص ٤٢٥، أبو السعود ج ٣ ص ١٥٦، الألوسي ج ٧ ص ٢٠٧، الشوكاني ج ٢ ص ١٣٥، الطاهر بن عاشور ج٧ ص٣٣٢، و ينظر صحيح البخاري (٣٢) ج ١ ص ٢١، (٣٢٤٥) ج ٣ ص ١٢٦٢، (٤٣٥٣) ج ٤ ص ١٦٩٤، (٤٤٩٨) ج ٤ ص ١٧٩٣، (٦٥٢٠) ج ٦ ص ٢٥٣٥، (٦٥٣٨) ج ٦ ص ٢٥٤٢، صحيح مسلم (٣٢٢) ج ١ ص ١١٤، صحيح ابن حبان (٢٥٣) ج ١ ص ٤٨٧، السنن الكبرى (١١ ١٦٦) ج ٦ ص ٣٤١، (١١٣٩٠) ج ٦ ص ٤٢٧، سنن الترمذي (٣٠٦٧) ج ٥ ص ٢٦٢،

غيره بدلالة القصر ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ ، فقلبه ساكن إلى ربه – سبحانه – لا يزعزعه خوف ولا فزع لما هو آت، ولا حزن على ما فات. ويؤنس إلى هذا المعنى تفسير أبي السعود لمعنى قوله تعالى : ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] بأنه " لا يعتريهم ما يوجب ذلك "(١) وهو ما يثبت تسليمهم التام بكل ما يأتيهم من الله تعالى. ولا يضعف الأمن ولا يتزعزع إلا بدخول نوازغ من الشرك الخفي، أو برفض الابتلاء الذي هو من خصائص طبيعة الحياة الدنيا، ولايغيب الأمن أبداً عن المؤمنين مهما كانت درجة إيمانهم، وإنما يقوى ويضعف(٢).

والملحوظ في كل ما سبق وما سيأتي أن متعلق الأمن محذوف، ولعل هذا يشير إلى اشتماله على كل أنواع الأمن النفسي والاجتماعي والاقتصادي خاصة في مكة،أي أن قلوبهم ساكنة مستقرة في كل جوانب الحياة لا يخشون ما يعكر صفوها ويكدر طيبها.

والإيمان والأمن دائما متواصلان ومتقاربان من وجهة اللغة، والإيمان نتيجته الأمن(٣)، وبالتأمل في سياقات ذكر الأمن السابقة نجد مصداق ذلك، فهناك علاقة سببية بين الأمن والإيمان، ومما يشير إلى ذلك دلالة فعل الجعل، فمع رسوخ سكون القلب فيه إلا أنه رسوخ معرض للاضطراب ووقوع الخوف في حال الكفر ؛ ذلك أن الجعل كما قال عنه

---

(١) أبو السعود ج٤ ص١٥٨.

(٢) د. عبد الله عائش :التربية الأمنية ص ٣٥ و ص ٥٧– ٥٨.

(٣) د. عبد الله عائش : التربية الأمنية ص ٣٥.

الرازي في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦] يكون " في الحال في العرض الذي لا يبقى"(١)، فجعل الحرم أمناً مع ما في دلالته من الثبات والرسوخ، مع إسناده لله تعالى، إلا أن الكفر ونقض عهد الإيمان يجعله عرضة للزوال. ويؤنس إلى هذا التفسير قول إبراهيم عليه السلام في آية البقرة: ﴿مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾[البقرة: ١٢٦]. ويؤنس إليه أيضاً ربط العبادة بنعمة الأمن في آية قريش: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش: ٣ - ٤] ويشير إليه تصريح آية الوعد بتبديل الخوف أمنا بشرط الإيمان والعمل الصالح، ويلمح إليه التهديد المفهوم من سياق آيتي ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا﴾ و﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا﴾ وتتأكد العلاقة بين الأمن والإيمان في آية تبديل نعمة سكون القلب خوفا للقرية التي بطرت معيشتها، ومجيء قصر سكون القلب على من لم تشب إيمانه شائبة شرك.

ومن الملحوظ أن أغلب صياغات ذكر الأمن كانت أسماء حيث وردت مصدراً (أمن) مفعولاً لفعل الجعل ﴿جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا﴾ ، ولفعل التبديل ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾، ومبتدأ مؤخراً ﴿لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ ، ووردت اسم فاعل خبراً لفعل الكينونة (آمنا، آمنة)، و(وردت حالا) (آمنين) لبيان وصف أصحاب الحال به حين حصول الفعل. وأغلب هذه السياقات في ذكر الحرم ومكة مما يناسبه معنى الثبات والدوام في الأسماء.

---

(١) الرازي ج ٢٨ ص ٨٨.

ووردت فعلا في قوله: (آمنهم) لتحقق وجوده، ومتعلقا بشرط مثل: (فإذا أمنتم) وذلك لأهميته في أداء العبادات، حيث تصعب إقامة العبادات في أجواء الخوف والفزع على النفس والأهل والمصالح، قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾[البقرة: ١٩٦]، أي: إذا انتفت أسباب خوفكم، وسكنت قلوبكم، واعتمرتم فعليكم الهدي، ولعل استعمال صيغة "إذا" التي تفيد الشرط المتحقق(١) مع الفعل الماضي الذي يفيد تحقق الوقوع هنا، وفي الآية التالية يشير إلى أن جواب الشرط لا يجب إلا بوجود الشرط، وقال أيضا: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وقريب منها قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ولعل في اختيار (إن) للشرط إشارة إلى ندرة من يكون منهم الائتمان دون كتابة أو رهان في السفر، وفيه حث على حسن التعامل بحسن الظن(٢).

ولما كان سكون القلب في موطن الحماية محموداً كان في موطن المخوف مذموما، ومن هنا جاء الاستفهام الإنكاري لمن سكن قلبه أمام عذاب الله في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩]، فالاستفهام ينكر عليهم أمنهم من عذاب الله تعالى لهم، وأمنهم مكره سبحانه مع إعراضهم عن عبادته لأن في ذلك خسارهم.

---

(١) البقاعي ج٣ ص١٢٩.

(٢) أبو السعود ج١ ص٢٧٢.

ولعل في تكرار دخول الاستفهام على الفعل (أفأمن) تأكيدا على سوء صنيعهم مما استدعى تكرار الإنكار عليهم، ومثله في الإنكار قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾[يوسف: ١٠٧]، وقوله تعالى : ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥﴾ [النحل: ٤٥]، فهذه الاستنكارات كلها توبيخية تهديدية(١) تنبههم إلى أنه لا ينبغي أن تسكن قلوبهم من أمر عظيم، يهدد سلامة نفوسهم، من إله عظيم لا يستطيع أحد رد بأسه وعقابه.

ومثله قوله تعالى ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩﴾ [الإسراء: ٦٨ - ٦٩]، حيث يذكر من دعا الله ووعده الإيمان ثم أخلف ؛ وينكر عليه سكون قلبه أمام قدرة الله تعالى على خسف البر به، أو إعادته للبحر وإغراقه فيه، فهذا السكون مع حصول موجب عكسه مما ينبغي ألا يحصل، وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾ [الملك: ١٦ - ١٧] ينكر على المشركين أمنهم وسكون قلوبهم أمام قدرته على خسف الأرض بهم، أو إرسال حاصب عليهم يهلكهم إن لم يؤمنوا به، ففي هذا الإنكار توبيخ شديد ونذر التهديد بالعذاب العتيد لمن ينسى قدرة من

---

(١) ينظر الزمخشري ج٢ ص٩٨، الرازي ج١٤ ص١٨٥، أبو حيان ج٤ ص٣٥٠، البقاعي ج٨ ص١٢، أبو السعود ج٣ ص٢٥٤، الألوسي ج٩ ص١٢ (الأعراف٩٧-٩٩)، أبو حيان ج٥ ص٣٤٥، البقاعي ج١٠ ص٢٤٠، الألوسي ج١٣ ص٦٧، الطاهر ج١٣ ص٦٤.

بيده ملكوت كل شيء، ويختلف عن الإنكار في آيات (أفأمن، أفأمنوا) بأنه إنكار بضمير الخطاب وفيه من الشدة بمواجهتهم بالتهديد ما لا يخفى.

ومما يسكن القلب النعاس⁽¹⁾ في ساعات الضيق والغم وخوف الهزيمة، ولذلك طمأن الله تعالى به المؤمنين، وغشاهم إياه في ساحة المعركة تثبيتا لقلوبهم وتقوية لأبدانهم، فقال سبحانه في ذكر معركة بدر ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال: ١١]، ويقول في سياق ذكر معركة أحد: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فتسكين القلوب من نوازع الاضطراب والضيق وخوف الهزيمة في الحرب لم يتحقق إلا لأن الجماعة مؤمنة إيمانا جعلها تعيش في عالم فوق الظواهر المادية، وتأمن في أصعب المواقف وأضيق الظروف⁽²⁾ إذ أنزل الله تعالى عليهم نعاسا لتسكن نفوسهم " فمجيء النوم يدل على زوال الخوف بالكلية "⁽³⁾، وهو من معجزاته تعالى

---

(١) ينظر الزمخشري ج٢ ص١٤٧، الرازي ج١٥ ص١٣٣، القرطبي ج٧ ص٣٧٢، الشوكاني ص٥٢٨، أبو حيان ج٤ ص٤٦١، البقاعي ج٨ ص٢٣٥، الألوسي ج٩ ص١٧٥، الطاهر ج٩ ص٢٧٨.

(٢) التربية الأمنية ص ٢٠٤ و ما بعدها.

(٣) الرازي ج ٩ ص ٣٦ في تفسير آية آل عمران.

لهم " وعن ابن مسعود : النعاس في القتال أمنة... لأنه في القتال لا يكون إلا من غاية الوثوق بالله والفراغ عن الدنيا "(١).

وقد تقدم ذكر الأمن على النعاس في آية آل عمران في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ ، وتأخر في آية الأنفال في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً ﴾ لأن المقام في الأولى " اقتضى الاهتمام بشأن الأمن ولذلك قدمه سبحانه وتعالى وبسط الكلام فيه كما لا يخفى على من تأمل في السياق "(٢)، وفي الثانية جاء ذكر الأمنة " في مقام تعداد النعم فلذا جيء بالقصة مختصرة للرمز "(٣). والمقصود أن الحال في أحد كان أشد حاجة لنفي الخوف وتحقق سكون القلب لما حصل من الهزيمة، والخوف على رسول الله ﷺ فتقدم ذكره، وفي بدر ذُكر ضمن مجموعة من المؤيدات من الله تعالى لهم منها الأمنة، ومنها نزول المطر، والربط على القلب وتثبيت الأقدام، وهي أمور لها تعلق بالأمن كما سيأتي.

إذن الأمن سكون للقلب بانتفاء أسباب قلقه واضطرابه من خوف على النفس والمال والمصالح والحقوق، فهو سكون يمكن به الله تعالى للناس من آمن منهم ومن يرجى إيمانه شكرا لهذه النعمة، وهو معرض للزوال حال كفرهم به تعالى وبنعمته، أما ما سيأتي من التعبير بالربط على القلب فإنه يحكي قصة هذا السكون وهيئته عقب خوف

---

(١) الرازي ج ٩ ص ٣٧ آية آل عمران.

(٢) الألوسي ج ٩ ص ١٧٦ في تفسير آية الأنفال.

(٣) الألوسي ج ٩ ص ١٧٦ في تفسير آية الأنفال.

واضطراب. ولا يعكّر هذا مجيء الاثنين في قصة بدر في آية الأنفال لأن النعاس سكن قلوبهم ابتداءً، وعند اشتداد المعركة واضطراب النفوس جاء الربط على القلب فثبتهم وزادهم تثبيت الأقدام قوة وإقداماً كما سيأتي.

الربط على القلب:

والربط على القلب يعني سكونه من الخوف والفزع، ويلتقي مع الأمن في أصل الدلالة وهو الغرض العام، ويفترقان في هيئة المعنى وكيفية الدلالة عليه، فالأمن تعبير حقيقي أما الربط على القلب فهو مجازي كما يشير ابن عطية في قوله : " ولما كان الفزع وخور النفس يشبه بالتناسب الانحلال حسُن في شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الربط، ومنه يقال: فلان رابط الجأش إذا كان لا تفرق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها "(١) ، فهو يرى أن القلب حال الفزع يشبه انحلال العقد لارتجافه واضطرابه ويكون ضعيفا، وفي حال السكون يشبه الربط في القوة والثبات. والربط على القلب سكون يتداركه من اضطراب وفزع متحقق، بخلاف الأمن الذي يأتي سياجا دون الأحداث التي تسبب الخوف، والأمن يمكن به تعالى للأشخاص والأماكن والقلوب، في حين يتعلق الربط على القلب فقط بموطن الخوف والسكون.

جاء الربط على القلب في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم ، منها آية القصص ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ

---

(١) ج ٣ ص ٥٠١ في تفسير آية الكهف آية ١٤.

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠] , وفسّر الزمخشري معنى الربط على القلب بالصبر والاطمئنان بعد خوف شديد كاد أن يذهب بعقل أم موسى عليه السلام، فقال : " فارغاً : صفراً من العقل، والمعنى أنها لما سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الحزن والدهش... لولا أن ربطنا على قلبها بإلهام الصبر كما يربط على الشيء المنفلت ليقر ويطمئن "(١)، ونبه إلى المجاز في تشبيه الربط على القلب صبراً بحال الربط على الشيء المنفلت، فكأن قلبها لشدة الخوف تحرك حركة شديدة أشبهت الانفلات. ويتجلى لطف الله تعالى في لفظ "لولا" الذي يفيد امتناع انكشاف أمرها لربط الله تعالى على قلبها. وصرّح الألوسي بلفظ المجاز فقال : " لولا أن ربطنا على قلبها : أي بما أنزلنا عليه من السكينة، والمراد لولا أن ثبتنا قلبها وصبرناها، فالربط على القلب مجاز عن ذلك "(٢). فالربط على القلب المضطرب يسكنه ويثبته كما يؤدي الربط على الشيء إلى قراره وسكونه. ويلحظ تسامحه في تفسير الربط على القلب بالسكينة، وهذا في أصل الدلالة وليس في طريق إثباتها.

وذكروا في آية الكهف: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: ١٤] أيضا معنى الصبر

---

(١) ج ٣ ص ٤٠٠.

(٢) ج ٢٠ ص ٤٩.

والتثبيت(١)، وقال الألوسي: " قويناها بالصبر فلم تزحزحها عواصف فراق الأوطان وترك الأهل والنعيم والإخوان، ولم يزعجها الخوف من ملكهم الجبار ولم يرعها كثرة الكفار "(٢)، ثم فصل في أوجه المجاز التي بنيت عليها العبارة قائلا : " وأصل الربط الشد المعروف، واستعماله فيما ذكر مجاز كما قال غير واحد... وفي الكشف لما كان الخوف والتعلق يزعج القلوب عن مقارها ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ قيل في مقابله ربط قلبه إذا تمكن وثبت، وهذا تمثيل، وجوز بعضهم أن يكون في الكلام استعارة مكنية تخييلية، وعدى الفعل "بعلى" وهو متعد بنفسه لتنزيله منزلة اللازم "(٣)، فصاحب الكشف يراه استعارة تمثيلية بتشبيه حال ضبط القلب عن الانزعاج والقلق بحال ربط الشيء المضطرب وتثبيته، ويجيز المكنية، أي: تشبيه القلب - بمعنى القوة الباطنية - بالشيء المضطرب، وحذفه وذكر شيء من لوازمه وهو الربط.

أما قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[الأنفال: ١١] المذكور في سياق معركة بدر، فقد أشار بعض المفسرين إلى معنى الصبر(٤)، وأشار

---

(١) ينظر الرازي ج ٢١ ص ٨٣، الزمخشري ج ٢ ص ٦٦١، أبو السعود ج ٥ ص ٢١٠، ابن كثير ج ٣ ص ٧٥، البيضاوي ج ٣ ص ٤٨٢، الطبري ج ١٥ ص ٢٠٧، الشوكاني ج ٣ ص ٢٧٣.

(٢) ج ١٥ ص ٢١٨.

(٣) ج ١٥ ص ٢١٨.

(٤) ينظر ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٣، الشوكاني ج ٢ص ٢٩١.

بعضهم إلى معنى الثقة في لطف الله(١)، وذكر الرازي قوة القلب وزوال الخوف فقال : " والمراد أن بسبب نزول هذا المطر قويت قلوبهم وزال الخوف والفزع عنهم، ومعنى الربط في اللغة الشد... ويقال لكل من صبر على أمر: ربط قلبه عليه، كأنه حبس قلبه عن أن يضطرب "(٢)، فحبس القلب عن أن يضطرب ويفزع يفيد سكونه، ولكن بعد خوف وفزع. ومع ما يفيده الربط من تمكن السكون داخل قلوب المؤمنين برؤية دلائل رضا الله عنهم، فإن في تعدية الفعل (ربطاً) بعلى زيادة تمكين هذا الاستقرار، فكأنه ختم عليها بالأمن فلا يداخلها الخوف أبدا، يقول الرازي: " كلمة "على" تفيد الاستعلاء، فالمعنى أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها "(٣) فهي ليست قلوباً آمنة فحسب، وإنما قلوب ذات سكون مستقر ومتمكن في أعماقها.

وهكذا يتبين أن هناك فرقا بين الأمن، والربط على القلب يظهر من كون الأمن سكوناً للقلب بنفي الخوف لحماية النفس والحقوق والمصالح، يمكن الله تعالى به للبلدان وأهلها وأرزاقها ومعارك الحق مع الضلال، ويتحقق في نفوس الخائفين بتحقق أسبابه ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ ، في حين يأتي الربط على القلب بعد وقوع الخوف الشديد والاضطراب. ومما يؤيد هذا قول الرازي: "ربط

---

(١) ينظر ابن عطية ج ٢ ص ٥٠٧، البيضاوي ج ٤ ص ٩٣، أبو السعود ج٤ ص ٩، الألوسي ج ٩ ص ١٧٦.

(٢) ج ١٥ ص ١٠٨.

(٣) الرازي ج ١٥ ص ١٠٨، و ينظر الألوسي ج ٩ ص ١٧٦.

قلبه عليه كأنه حبس قلبه عن أن يضطرب "(١). فدلالة فعل الربط يشير إلى هذا الاضطراب الذي يستلزم حركة التهدئة، والآيات تؤيد ذلك، فأم موسى عليه السلام كانت شديدة القلق والاضطراب حين دهمها الخوف والجزع لفقد ابنها، وأصحاب الكهف كانوا في مواجهة ملك جبار، ومن المعلوم أن الصدع بالحق عند مثل هؤلاء الجبابرة له وقع شديد، ولذلك كان في منزلة الجهاد(٢). والمسلمون في بدر كانوا قلة وخائفين لما يرونه من كثرة أعدائهم وما يعرفونه من شدة بأسهم، كما كانوا قلقين على رسول الله ﷺ أن يصاب بأذى وهم الذين وعدوه بنصرته، ومن هنا جاءت دلالة الربط على القلب لتفيد سكوناً يزيده شرفاً أنه مسند في كل الآيات لله سبحانه وتعالى مرتين بضمير العظمة، والثالثة بضمير الغيبة، وحسبك بأمن يرسله الله تعالى إلى قلب عبيده في مضائق الحالات وصعاب الأمور !

وهكذا فإن معنى انتفاء أسباب الخوف على النفس والأموال والمصالح في لفظ الأمن جدير بمواقعه التي جاء فيها، ومعنى تدارك القلب من

---

(١) ج ١٥ ص ١٠٨.

(٢) ينظر المستدرك على الصحيحين (٨٥٤٣) ج ٤ ص ٥٥١، (٦٦٢٨) ج ٣ ص ٧٢٥، السنن الكبرى (٧٨٣٤) ج ٤ ص ٤٣٥، سنن أبي داود (٤٣٤٤) ج ٤ ص ١٢٤، سنن ابن ماجة (٤٠١١) ج ٢ ص ١٣٢٩، ١٣٣٠، سنن البيهقي الكبرى (١٩٩٧٢) ج ١٠ ص ٩١، سنن الترمذي (٢١٧٤) ج ٤ ص ٤٧١، سنن النسائي " المجتبى " (٤٢٠٩) ج ٧ ص ١٦١، الجامع (٢٠٧٢٠) ج ١١ ص ٣٤٦، المعجم الأوسط (٦٨٢٤) ج ٧ ص ٥٢.

الخوف الشديد بعد وقوعه في تركيب الربط على القلب جاء جديراً بمواقعه.

السكينة:

السكينة من السكون، وهي على وزن فعيلة كما ذكر الطبري(١)، وذكر ابن فارس أن " السين والكاف والنون أصل واحد مطرد يدل على خلاف الاضطراب والحركة... ومن الباب السكينة، وهو الوقار "(٢). وقال ابن منظور: " السكينة : الوداعة والوقار، وقوله ﷻ ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ﴾... قال بعضهم : السكينة : الرحمة، وقيل : هي الطمأنينة، وقيل: هي النصر، وقيل : هي الوقار، وما يسكن به الإنسان، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ ما تسكن به قلوبهم "(٣)، فهذه التفسيرات تشير إلى المعنى العام، لسكون القلب بل هي مشتقة منه، ولكنها بالتأكيد تغاير هيئة معنى الأمن والطمأنينة والربط على القلب وغيرها، فمع إيراد المفسرين لهذه المترادفات في تفسيرها، إلا أن شرحهم لدلالتها يشير إلى إدراكهم الفرق بين هيئة معناها وهيئة معاني هذه المترادفات، فالسكينة بدلالتها على المبالغة في سكون القلب، وإسناد إنزالها لله تعالى في كل السياقات، وإنزالها على الرسول ﷺ وأتباعه تشير إلى أمر فيه من الطمأنينة والأمن والوقار وزيادة.

---

(١) الطبري ج٢ ص ٣٨٧.

(٢) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ج ٣ ص ٨٨.

(٣) ابن منظور : لسان العرب ج ١٣ ص ٢١٤.

ورد لفظ السكينة في ستة مواضع أحدها : في قصة بني إسرائيل في قوله تعـالى ﴿ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨ ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وأورد الطبري في معناها هنا عدة أقوال: " فقال بعضهم : هي ريح هفهافة لها وجه كوجه الإنسان... وقال آخرون : لها رأس كرأس الهرة وجناحان... وقال آخرون : إنما هي طست من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء... وقال آخرون : السكينة روح من الله يتكلم... وقال آخرون: السكينة ما يعرفونه من الآيات فيسكنون إليها... وقال آخرون: السكينة الرحمة... وقال آخرون : السكينة الوقار"(١)، ورفض الإمام الشوكاني هذه المعاني قائلاً : " هذه التفاسير المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاء الأعلام - يقصد الصحابة والتابعين- من جهة اليهود - أقماهم - الله فجاءوا بهذه الأمور لقصد التلاعب بالمسلمين رضي الله عنهم، والتشكيك عليهم، وانظر إلى جعلهم لها تارة حيواناً، وتارة جماداً، وتارة شيئاً لا يعقل... وهكذا كل منقول عن بني إسرائيل متناقض... ولا يصح أن يكون مثل هذه التفاسير المتناقضة مروياً عن النبي ﷺ، ولا رأياً رآه قائله، فهم أجل قدراً من التفسير بالرأي وبما لا مجال للاجتهاد فيه. إذا تقرر لك هذا عرفت أن الواجب الرجوع في مثل ذلك إلى معنى السكينة لغة

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٦١١ – ٦١٢.

وهو معروف... ولو ثبت لنا في السكينة تفسير عن النبي ﷺ لوجب علينا المصير إليه، والقول به، ولكنه لم يثبت من وجه صحيح بل ثبت أنها تنزلت على بعض الصحابة عند تلاوته للقرآن، كما في صحيح مسلم "(١) وذهب أغلب المفسرين إلى أنها مما تطمئن إليه النفس وتسكن(٢)، فيدخل فيها الرحمة والوقار والثبات وهو الأرجح، فإن كلام الله تعالى يبعث في النفس السكون.

وجاءت في سياقات امتحان واختبار لأصحابها، هبة من الله تعالى تزيل الضيق والحزن في المواضع الخمسة الأخرى، ومنها قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٦] وبالتأمل في أقوال المفسرين قد نجد ما يهدينا إلى هيئة معنى السكينة واختصاصها بالسياق الذي تأتي فيه، فهي عند الرازي في ذكر معركة حنين كناية عن الأمن إذ يقول : "والسكينة ما يسكن إليه القلب والنفس، ويوجب الأمنة والطمأنينة، وأظن وجه الاستعارة فيه أن الإنسان إذا خاف فر وفؤاده متحرك، وإذا أمن سكن وثبت، فلما كان الأمن موجبا

---

(١) ج ١ ص ٢٦٧.

(٢) ينظر الطبري ج٢ ص ٦١٣، الزمخشري ج١ ص ٣٢١، الرازي ج٦ ص ١٥١، ابن عطية ج٣ ص ٣٦، ابن كثير ج١ ص ٣٠٢، البيضاوي ج١ ص ٥٤٤، أبو السعود ج١ ص ٢٤١، الألوسي ج٢ ص ١٦٩، الطاهر ج٢ ص ٢٩٣.

للسكون جعل لفظ السكينة كناية عن الأمن "(١)، فجعل السكينة من لوازم وروادف الأمن الذي أشرنا إلى دلالته على الحماية بانتفاء أسباب الخوف والقلق. وإثبات المعنى بلازمه – كما ذكر البلاغيون(٢)- أبلغ؛ وذلك أنك لا تثبت المعنى بذاته، وإنما بدليله وبرهانه، فسكينة القلب دليل على انتفاء أسباب خوفه واضطرابه وهو الأمن، وقريب منه تفسير السكينة بالرحمة والطمأنينة التي تسكن إليها النفوس(٣)، فلولا تحقق الأمن بحماية الله تعالى ونصرته لما سكن القلب. ولكن البقاعي يضيف في تفسير السكينة في آية التوبة أنها " الأمر الذي يسكن القلوب عن أن تتأثر يدهمها(٤) من البلاء من الوثوق به سبحانه، ومشاهدة جنابه الأقدس والغناء عن غيره "(٥)، ومثله أبو السعود إذ يقول: " سكينته أي رحمته التي تسكن بها القلوب وتطمئن إليها اطمئنانا كلياً مستتبعاً للنصر القريب. وأما مطلق السكينة فقد كانت حاصلة له ﷺ قبل ذلك أيضا "(٦) فالسكينة – كما نرى – أمر خاص ينزله الله على القلوب فتسكن سكوناً يورثها ثقة واطمئناناً وغنىً بالله عن غيره، ففيها ما لا يوجد في الأمن والطمأنينة ومثيلاتها.

---

(١) ج ١٦ ص ١٨.

(٢) ينظر شروح التلخيص ج ٤ ص ٢٧٥ – ٢٧٦.

(٣) ينظر ابن عطية ج٨ ص١٥٥، أبو السعود ج ٤ ص ٥٦، ابن كثير ج ٢ ص ٣٤٦، الطبري ج ١١ ص ١٠٤، الألوسي ج ١٠ ص ٧٥، الطاهر ج١٠ ص ١٥٨.

(٤) هكذا في التفسير و لعل الأصوب (بما يدهمها) .

(٥) البقاعي ج٨ ص٤٢٥.

(٦) أبو السعود ج٤ ص٥٦.

وأشار بعض المفسرين إلى أن إعادة الجار والمجرور (وعلى المؤمنين) في إنزال السكينة عقب إنزالها على قلب الرسول ﷺ فيه إيماء إلى التفاوت بين السكينتين : " فسكينة الرسول - عليه الصلاة والسلام - سكينة اطمئنان على المسلمين الذين معه وثقة بالنصر، وسكينة المؤمنين سكينة ثبات وشجاعة بعد الجزع والخوف "(١)، ولكنهم تحيّروا في نزول السكينة على الرسول ﷺ في آية التوبة ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٤٠] التي نزلت في حق الرسول ﷺ وأبي بكر ﵁ كما ذكر الطاهر(٢)، فاختلفوا في عود الضمير إلى الرسول ﷺ أو إلى صاحبه، ثم تحيّروا كيف يوصف الرسول ﷺ بالسكينة وهي كما اعتادوا تفسيرها سكون بعد خوف وانزعاج، وهو ما جاز عندهم وصف أبي بكر ﵁ به، فأخذوا يبحثون عن تفسير يلائم حال الرسول ﷺ ، فذهب فريق منهم إلى أنه تجدد للسكينة الحاصلة أصلا (٣)، وآخرون إلى معنى عصمته من حصول أسباب الخوف(٤)، وجعلها ابن عطية " ما ينزله الله على أنبيائه من الحياطة لهم والخصائص التي لا تصلح إلا لهم "(٥)، فهي عندهم

---

(١) الطاهر بن عاشور ج ١٠ ص١٥٨.

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) ابن كثير ج٢ ص ٣١٥، ٣١٦.

(٤) ينظر أبو السعود ج ٤ ص ٥٦، والألوسي ج١٠ ص٧٥.

(٥) ابن عطية ج٨ ص١٨٧.

سكون قلب مختلف عن سكون قلب أبي بكر ﵁ ؛ إذ هي أمر خاص أنزله تعالى على قلب نبيه، ورآها الطاهر كذلك لكنها نزلت على الرسول ﷺ قبل دخول الغار وقبل قول أبي بكر فقال: " فيكون تقدير الكلام : فقد نصره الله فأنزل السكينة عليه وأيّده بجنود حين أخرجه الذين كفروا، وحين كان في الغار، وحين قال لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا. فتلك الظروف الثلاثة متعلقة بفعل (نصره)... وبهذا البيان تندفع الحيرة التي حصلت للمفسرين في معنى الآية، حتى أغرب كثير منهم فأرجع الضمير المجرور من قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ إلى أبي بكر... وما جاء ذكر أبي بكر إلا تبعاً لذكر ثبات النبي عليه الصلاة والسلام"⁽¹⁾.والذي يظهر لي من صياغة السكينة المفيدة للمبالغة في السكون⁽²⁾، ونزولها على الرسول ﷺ وصاحبه ﵁ أنها درجة عالية من السكون ينتج عنها التثبيت في هذا الموقف الحرج، فهي أقرب إلى معنى الحياطة والعصمة من الخوف تثبيتا لهما، وهذا يصح حتى في معركة حنين على التفسير الذي يذكر أن نزول السكينة كان عقب عودتهم للرسول ﷺ⁽³⁾ بعد فرارهم، فعليه يكون نزول السكينة هبة من الله لترسخ سكون القلب. ويتأيد هذا بذكر البقاعي فيها أنها سكون للقلب ثقة بالله ومشاهدة جنابه الأقدس⁽⁴⁾.

---

(١) الطاهر ج١٠ ص٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) ينظر البقاعي ج٨ ص٤٧٧.

(٣) ينظر ابن عطية ج٨ ص١٥٥.

(٤) ينظر البقاعي ج٨ ص٤٢٥.

ويأتي ذكر السكينة في ثلاثة مواضع في سورة الفتح كلها حول صلح الحديبية فأولها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤] وتتشابه أقوال المفسرين في دلالة معناها على السكون والطمأنينة والوقار والرحمة⁽¹⁾، إلا أن المتأمل يجد أنها هبة ربانية قُصد منها تثبيتهم⁽²⁾ لما اعتراهم من الضيق لحرمانهم من العمرة بسبب صلح الحديبية، وما وسوس به الشيطان من خواطر الشك، فليس ثمت خوف وإنما هو ضيق مما بدا أنه انتصار لقريش، وهو موقف اختبار من الله تعالى لهم ولصبرهم. وقد كافأهم على صبرهم بإنزال السكينة، وهي من جند الله تعالى المذكورة في الآية⁽³⁾ " في هذا المحل الضنك إظهارا لتمام قدرته ولطيف حكمته "⁽⁴⁾، ومما يؤنس إلى اختلاف هيئة معنى السكينة عن غيرها من مترادفاتها ما نقله البقاعي عن الرازي ": السكينة، - هاهنا - معين يجمع فوزاً وقوة وروحاً يسكن إليه الخائف ويتسلى به الحزين، وأثر هذه السكينة الوقار والخشوع وظهور الحزم في الأمور "⁽⁵⁾.

وثاني مواضع ذكر السكينة في الفتح قوله تعالى في بيعة الرضوان: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا

---

(١) ينظر الألوسي ج٢٦ ص٩٢.

(٢) ينظر البقاعي ج١٨ ص٢٨٤.

(٣) ينظر ابن عطية ج١٥ ص٩٠، أبو حيان ج٨ ص٩١، البقاعي ج١٨ ص٢٨٥.

(٤) البقاعي ج١٨ ص٢٨٣.

(٥) البقاعي ج١٨ ص٢٨٤.

﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ١٨ - ١٩]، وهي أيضا تظهر أن السكينة هبة من الله تثبت المؤمنين بسكون نفوسهم على ما هم عليه من الحق سكوناً مبالغاً فيه بدلالة صيغتها، وبدلالة من نزلت عليهم وهم المؤمنون الذين ﷺ، وصدقوه وعدهم بنصرة دينه، فلا خوف ولا فزع، وإنما هي وسوسة الشيطان والكآبة بعدم انتصار الرسول ﷺ في الظاهر، ومن هنا جاءت السكينة لتثبتهم على ما في قلوبهم من الصدق والوفاء، وليرضوا بالصلح ويثقوا بوعد الله تعالى.

وثالث المواضع في قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦]، وأشير في تفسيرها إلى معنى الوقار والاطمئنان⁽¹⁾، " وقيل: ثبتهم على الرضا والتسليم "⁽²⁾، وأشار البقاعي إلى ما يفيد إدراكه لمباينة هيئة معناها عن مثيلاتها، فهي هبة من الله تعالى تنزل إلى القلب فتكسبه فهماً وروحاً وتعقلاً فقال عنها إنها: " الشيء اللائق إضافته إليه سبحانه من الفهم عن الله والروح الموجب لسكون القلب المؤثر للإقدام على العدو والنصر عليه إنزالاً كائناً ﴿على رسوله﴾ ﷺ الذي عظمته من

---

(١) ينظر ابن جرير ج ٢٦ ص ١٠٤، الزمخشري ج ٤ ص ٣٤٦، ابن عطية ج١٥ ص١٣٨، البيضاوي ج ٥ ص ٢٠٧، أبو السعود ج ٨ ص ١١٢، الشوكاني ج٥ ص٥٤، الألوسي ج٢٦ ص١١٦، الطاهر ج٢٦ ص١٩٤.

(٢) القرطبي ج١٦ ص ٢٨٩، الشوكاني ج٥ ص٥٤.

عظمته، ففهم عن الله مراده في هذا القضية فجرى على أتم ما يرضيه "(١) ، وشرح ذلك الطاهر فقال : " جعل في قلوبهم التأني وصرف العجلة عنهم فعصمهم من مقابلة الحمية بالغضب والانتقام، فقابلوا الحمية بالتعقل والتثبت فكان في ذلك خير كثير"(٢). وبهذا يتبين أن للسكينة هيئة معنى تختلف عن شبيهاتها، فالرازي يذكر جمعها بين الفوز والروح، والبقاعي يشير لكونها سكون قلب لا يتأثر بالبلايا لمشاهدة جناب الله الأقدس، وأمر خاص من الفهم عن الله، وأبوالسعود إلى أنها اطمئنان كلي مستتبع للنصر، وكل هذا يفيد زيادة معناها عن مجرد السكون، فهي سكون مبالغ فيه ينزل على قلوب الرسل والأولياء في موطن ضيق، أو لحظة نزغ الشياطين، فيثبتهم على ثقتهم بالله تعالى ويزيل ضيقهم وكآبتهم. ولا يغررنا تفسيرهم لها بأحد مرادفاتها مثل قول أبي السعود : " فأنزل عليهم الطمأنينة والأمن وسكون النفس بالربط على قلوبهم"(٣)؛ لأنهم إنما يريدون توضيح المعنى العام فقط، وذلك ولو كان كل منها يؤدي ذات المعنى بذات الهيئة لوجد في القرآن –حاشاه- ما يستغنى عنه في الدلالة. ومع هذا فقد أخذ بعضهم يبحث في دلالتها على هيئة خاصة فوجدها في حياطة النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم في مواقف ضيق واختبار، فتثبتهم على ما هم عليه من الدين والحق والوفاء والإخلاص.

---

(١) البقاعي ج١٨ ص٣٣٠، ٣٣١.

(٢) الطاهر ج٢٦ ص ١٩٤.

(٣) أبو السعود ج٨ ص١١٠، وينظر الألوسي ج٢٦ ص١٠٨ الفتح (١٨).

ومما يؤيد ما ذهبت إليه من أنها هيئة خاصة تغاير مرادفاتها قول الرازي السابق: " الحمية كانت مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة معدة لعباده فأنزلها "⁽¹⁾، ويزيدها شرفا إسناد إنزالها لله تعالى، وفي ذلك يقول: " السكينة في نفسها وإن كانت حسنة،لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن ما لا يبقى معه لحسنٍ اعتبار"⁽²⁾، ويقول الطاهر في ذلك: " وإضافتها إلى ضميره تنويه بشأنها وبركتها، وإشارة إلى أنها سكينة خارقة للعادة، ليست لها أسباب ومقدمات ظاهرة، وإنما حصلت بمحض تقدير الله وتكوينه أُنفا، كرامة لنبيه ﷺ وإجابة لندائه الناس "⁽³⁾، ويقول: " فدل على شرف السكينة على الحمية؛ لأن الإنزال تخييل للرفعة "⁽⁴⁾ ، فهذا التذييل يفيد أنها أمر علوي المصدر والمرتبة.

وورد لفظ السكينة بالتعريف بأل مرتين، ولعل الحكمة من التعريف هو الجنس، أي ذلك الشعور بسكينة القلب الذي نزل في قلوبكم، وأشارت الألف واللام؛ إلى معنى الكمال، لأنها _ كما قال الطاهر _ سكينة خارقة للعادة.

---

(١) الرازي ج ٢٨ ص ٨٨.

(٢) الرازي ج ٢٨ ص ٨٨ آية الفتح ٢٦.

(٣) الطاهر ج١٠ ص١٥٨ التوبة ٢٦.

(٤) الطاهر ج٢٦ ص١٩٥ الفتح ٢٦.

وعديت بـ (في) – في الأولى – لبيان استقرار السكينة في القلب استقرار المظروف في الظرف، وبـ (على) – في الثانية – للدلالة على " عظمها بحيث إنها تغلب الخوف وإن عظم "(١)، فإذا قلنا بعدم وجود خوف وإنما هو ضيق وكآبة لعدم غلبة الرسول ﷺ ظاهرياً أصبح الاستعلاء فيها عليه. ولعل هناك تقابلاً في المعنى بين الظرفية (في) والاستعلاء (على)، وهو تقابل خلافي وليس ضديا(٢). ووردت السكينة نكرة مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ولعل التنكير يشير إلى أنها سكينة عظيمة جليل قدرها وأثرها في قلوب المؤمنين، خاصة مع تعلقها بذكر الرب ﴿ من ربكم﴾.

ويُلحظ في صياغة إنزال السكينة ورود فعل الإنزال في ثلاثة مواضع معطوفا بالفاء (فأنزل)، ومرة بـ ثم (ثم أنزل). أما الفاء في آية التوبة ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة: ٤٠]، فالظاهر أنها على أصل معناها من التعقيب، وهذا إشارة إلى سرعة تثبيته تعالى لقلوب أنبيائه وأوليائه بالسكينة. وأشار بعضهم في آية الفتح: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح: ١٨] إلى أنها للتعقيب(٣)، وبعضهم إلى أنها سببية(٤). ورجح الرازي في معنى الفاء في

---

(١) البقاعي ج١٨ ص ٣١٦ آية الفتح ١٨.

(٢) ينظر نجم الدين أحمد ابن الأثير : جوهر كنز البراعة ص٨٧، بدر الدين الزركشي : البرهان في علوم القرآن ج٣ ص٤٥٨، السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ج٢ ص٩٥.

(٣) ينظر الرازي ج٢٨ ص٩٥، ٩٦.

(٤) ينظر البقاعي ج١٨ ص٣١٦ آية ١٨.

آية الفتح: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٦]، معنى " لما جعلوا في قلوبهم الحمية، فالمسلمون على مجرى العادة لو نظرت إليهم لزم أن يوجد منهم أحد الأمرين : إما إقدام، وإما انهزام. فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا ولم ينهزموا بل يصبروا، وهو بعيد في العادة، فهو من فضل الله تعالى"(١). وجعلها البقاعي هنا أيضاً سببية فقال: " ولما كانت هذه الحمية مع الكثرة موجبة ولابد ذل من تصوب إليه ولاسيما إن كان قليلا ؛ بيّن دلالة على أن الأمر تابع لمشيئته لا لجاري العادة أنه تأثر عنها ضد ما تقتضيه عادة، فقال مسبباً عن هذه الحمية : (فأنزل الله) أي الذي لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء بسبب حميتهم (سكينته) "(٢).

وأما الموضع الذي جاء فيه الفعل معطوفا بحرف العطف (ثم) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ فهو للترتيب عند ابن عطية(٣)، وللتراخي الزمني عند الألوسي(٤)، والطاهر(٥)؛ فلصعوبة الموقف على الرسول ﷺ والصحابة الكرام بدا وكأن إنزال السكينة جاء بعد مهلة من الزمن، ولكنه عند البقاعي والطاهر يحتمل التراخي الرتبي على اختلاف تقديرهما، فالبقاعي رأى في التراخي معنى

---

(١) الرازي ج٢٨ ص١٠٢ الفتح ٢٦.

(٢) البقاعي ج١٨ ص٣٣٠ الفتح ٢٦.

(٣) ينظر ابن عطية ج٨ ص١٥٥ التوبة ٢٦.

(٤) ينظر الألوسي ج ١٠ ص ٧٥.

(٥) ينظر ج١٠ ص ١٥٧-١٥٨.

جديداً هو استبعاد وقوع السكينة في مجاري العادات⁽¹⁾، ورأى الطاهر أن معنى التراخي ارتفاع منزلة إنزال السكينة مقارنة بالنصر الأول⁽²⁾.

والسكينة كما توحي الآيات سكون قلب خارق للعادة مما قد ينتابه من ضيق أو كآبة أو إشفاق في موقف اختبار وامتحان، بخلاف الأمن الذي يشمل سكون القلب بانتفاء كل ما يزعزع حياة ومصالح البلاد والعباد. وهي تلتقي مع الربط على القلب في كونها أمناً داخلياً، وتفترق عنه في أنها هبة تثبت سكون أصحابها ابتداء، ويأتي الربط بعد سياقات الاضطراب والخوف.

الاطمئنان:

الاطمئنان لفظ يدل على سكون القلب، ويدور في حقل الأمن والسكينة، وفي هذا يقول ابن فارس : " الطاء والميم والنون أصل بزيادة همزة، يقال : طمأن المكان يطمئن طمأنينة، وطامنت منه سكَّنت"⁽³⁾. ويقول ابن منظور : " طأمن الشيء سكَّنه، والطمأنينة : السكون... واطمأنت الأرض وتطامنت انخفضت... وقوله عزّ وجلّ ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ أي: ليسكن إلى المعاينة بعد الإيمان بالغيب... قال أبو اسحق في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ

---

(١) ينظر ج ٨ ص ٤٢٥.

(٢) ينظر الطاهر ج ١٠ ص ١٥٧.

(٣) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ج ٣ ص ٤٢٢.

فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: إذا سكنت قلوبكم "(١) ، ويرى الأصفهاني أن الطمأنينة والاطمئنان السكون بعد الانزعاج(٢)، وفسرت الطمأنينة بالسكون، والسكينة بالطمأنينة(٣)، ومن المعلوم- كما سبق - أن هذه الألفاظ وإن اتفقت في أصل الدلالة فإن بينها فروقاً في هيئته ووجه دلالته على المعنى الأساس. ومما يلحظ ذكر الأصفهاني مجيء الاطمئنان بعد الانزعاج، أي: أن حال السكون فيه يتحقق بعد القضاء على أسباب الانزعاج، فيكون سكوناً راسخاً للقلب يصل إلى درجة اليقين في المعتقد، والتمكن في الأجسام، ويوحي بالقرار والثبات الراسخ بدلالة الاشتقاق من اطمئنان الأرض أي انخفاضها، مما يجعل الأشياء مستقرة فوقها. وذكر الطاهر أنها مجاز فقال: " حقيقة يطمئن يسكن... فهو حقيقة في سكون الأجسام. وإطلاقه على استقرار العلم في النفس وانتفاء معالجة الاستدلال أصله مجاز بتشبيه التردد وعلاج الاستدلال بالاضطراب والحركة، وشاع ذلك المجاز حتى صار مساوياً، للحقيقة "(٤) وعليه فإن الاطمئنان يخالف مرادفاته، فالأمن سكون للقلب بانتفاء أسباب الخوف على النفس والمصالح،

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ج ١٣ ص ٢٦٨.

(٢) ينظر الأصفهاني : المفردات ص ٣٠٧.

(٣) ينظر على سبيل المثال الرازي ج ١٦ ص ١٨ آية التوبة ٢٦، الألوسي ج٢٦ ص ١٠٨ آية الفتح.

(٤) الطاهر ج٣ ص٣٩ آية البقرة ٢٦٠.

والسكينة سكون له خارق للعادة يهبه الله تعالى لمن يشاء، والاطمئنان تمكن للسكون دائم كدوام اطمئنان الأرض. ويؤنس لهذا ما ذكره ابن القيم من أن الطمأنينة أعم من السكينة؛ لأن سكون القلب فيها لا يفارق القلب "، فإنها مأخوذة من الإقامة، يقال: اطمأن بالمكان إذا أقام به"(١).

وبالتأمل في السياقات التي ورد فيها لفظ الاطمئنان وجدت أن السكون فيه يكون من أحد ثلاثة أمور أولها : من خوف مثل خوف المعركة في آية آل عمران: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ ولكن ليطمئن [آل عمران: ١٢٦]، والأنفال: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡ﴾[الأنفال: ١٠] ، وآية النساء: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[النساء: ١٠٣] ، وخوف العاقبة في آية الفجر: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧] على أحد الأقوال فيها(٢). وفي هذا المعنى جاء قول البيضاوي في تفسير آية آل عمران: " ولتسكن إليه من الخوف "(٣)، وذكر الطبري أن

---

(١) ابن قيم الجوزية : تهذيب مدارج السالكين، هذبه : عبد المنعم صالح العلي العزّي، ط٦، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ج٢ص٧٩٩ .

(٢) ينظر الزمخشري ج٤ ص٢٥٤، الرازي ج١٦ ص١٧٦، أبو حيان ج٨ ص٤٦٧، البقاعي ج٢٢ ص٤٢،٤٣، الطاهر ج٣٠ ص٣٤٢ آية الفجر٢٧ .

(٣) البيضاوي ج ٢ ص ٨٩، و ينظر الطبري ج ٤ ص ٨٤، أبو السعود ج ٢ ص ٨١، الألوسي ج ٤ ص ٤٦، الطاهر ج٤ ص٧٨ .

معنى قوله: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ﴾" فإذا زال خوفكم من عدوكم وأمنتم أيها المؤمنون واطمأنت أنفسكم بالأمن "(١).

وثانيها : أن يكون السكون من تردد وعدم ثبات مثل الخواطر التي تعرض للمستدل، أو الوجل من الخشية، فمثال الأول قول إبراهيم عليه السلام في آية البقرة: ﴿لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وآية المائدة: ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة: ١١٣]، ومثال الثاني آية الرعد: ﴿تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] ، فإبراهيم عليه السلام أراد زيادة يقينه بقدرة الله مع إيمانه بذلك أصلاً (٢)، وأتباع عيسى عليه السلام أرادوا زيادة يقينهم بانضمام علم المشاهدة للعلم الاستدلالي برؤية المائدة والأكل منها(٣)، والمؤمنون تستقر نفوسهم وتأنس بالقرآن مما يعرض لهم من الوجل من خشية الله(٤)، أو الشبه التي يوسوس بها الشيطان(٥) وذكر ابن عطية في معنى ﴿لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾" أن يسكن فكره في الشيء المعتقد "(٦)، وبين

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٦٠، و ينظر الزمخشري ج ١ ص ٥٩٤، البيضاوي ج ٢ ص ٢٤٨، الشوكاني ج ١ ص ٥١٠، الطاهر ج٥ ص١٨٩،١٨٨.

(٢) ينظر الرازي ج٤ ص٤٠ البقرة ٢٦٠.

(٣) ينظر ابن عطية ج٥ ص٢٣٥، أبو حيان ج٤ ص٥٩، البيضاوي ج٣ ص٣٠١، أبو السعود ج٣ ص٩٧ المائدة ١١٣ .

(٤) يظر أبو حيان ج٥ ص٣٨٠، البيضاوي ج٥ ص٢٣٨ (آية الرعد ٢٨) .

(٥) ينظر البقاعي ج١٠ ص٣٣٦، الطاهر ج١٣ ص١٣٧ الرعد .

(٦) ابن عطية ج ١ ص ٣٥٣ .

أنها " درجة زائدة على الإيمان، وهي أن لا يبقى على النفس في يقينها مطلب يحركها إلى تحصيله "(١)، وذكر الطبري في معنى ﴿لتطمئن قلوبنا: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ تستكن قلوبنا وتستقر على وحدانيته(٢)، وقالوا في معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]، تسكن القلوب وتستأنس(٣) ويثبت اليقين(٤). وقالوا في معنى آية الرعد:" سكونها بعد الاضطراب من خشيته"(٥).

وثالثها : السكون من حركة واضطراب مثل آية النحل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ [النحل: ١١٢] ، وآية الإسراء: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ [الإسراء: ٩٥] ، وآية الحج: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ [الحج: ١١]. فالاطمئنان في شأن القرى يكون بنفي الخوف عن نفوس أهلها(٦)، ونفي

---

(١) ابن عطية ج١٦ ص٣٠١ (الفجر ٢٨) .

(٢) ينظر الطبري ج٧ ص٨٥، الرازي ج٦ ص١٣١ (المائدة ١١٣) .

(٣) الشوكاني ج٣ ص٨١، و ينظر الطبري ج١٣ ص١٤٥، ابن كثير ج٢ ص٥١٣، البيضاوي ج٣ ص٣٢٩، أبو السعود ج٥ ص٢٠، الألوسي ج١٣ ص١٤٩، الشوكاني ج٣ ص٨١، الطاهر ج١٣ ص١٣٧ .

(٤) الزمخشري ج٢ ص٣٥٩، وينظر البقاعي ج١٠ ص٣٣٦، والطاهر ج١٣ ص١٣٧ (آية الرعد٢٨) .

(٥) أبو حيان ج٥ ص٣٨٠، وينظر البيضاوي ج٥ ص٢٣٨ الرعد .

(٦) ينظر أبو حيان ج٥ ص٥٢٤، البيضاوي ج٥ ص٣٧٤، أبو السعود ج٥ ص١٤٥ النحل . ١١٢ .

حركتها أي أنها: " قارة ساكنة فأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها لخوف أو ضيق"(١). وقريب منه تفسير قوله: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ ﴾ أي: يتخذون الأرض قرارا(٢)؛ لأن طبيعة الملائكة أنهم ذوو أجنحة ولا يمشون مستقرين على الأرض. ويكون الاطمئنان لدى العابد لله على حرف بنفي القلق وتحقق السكون أي: " ثبت على ما كان عليه ظاهرا"(٣)، وهكذا نجد أن الطمأنينة تلتقي مع مثيلاتها في أصل الدلالة، وهو سكون القلب، ثم تختلف في طبيعة هذا السكون وصيغتها التي تساق فيها. ومن الصيغ التي وردت فيها أفعال مضارعة في خمسة مواضع، ووردت فعلاً ماضياً مرتين، وجاءت اسماً مشتقاً أربع مرات.

والفعل المضارع كما هو معروف يفيد تجدد واستمرار هذا السكون والاطمئنان المسند للقلوب؛ وما ذلك إلا لقوة السبب واستمراره من آيات الله العظيمة، كما في قصة إحياء الموتى في قصة إبراهيم عليه السلام، والنصر في المعركة، والمائدة من السماء، وذكر الله تعالى. ووقوع الاطمئنان بعد (إذا) المفيدة لمعنى الشرط في قوله: ﴿ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ ﴾ يفيد ترتب العمل، وهو إقامة

---

(١) الرازي نقلا عن الواحدي ج٢٠ ص١٢٨، وينظر البقاعي ج١١ ص٢٦٤، ابن كثير ج٢ ص٥٩٠ .

(٢) ينظر الزمخشري ج ٢ ص ٦٤٩، ابن كثير ج ٣ ص ٦٦، البقاعي ج ١١ ص ٥١٤، أبو السعود ج ٥ ص ١٩٦، الشوكاني ج٣ ص٢٦٠، الطاهر ج١٥ ص٢١٣ .

(٣) أبو السعود ج٦ ص٩٧، وينظر الطبري ج١٧ ص١٢٢، الرازي ج٢٣ ص١٢، الألوسي ج١٧ ص١٢٤، الشوكاني ج٣ ص٤٤٠ .

الصلاة على تحقق الاطمئنان. أما الوصف المشتق (مطمئن) فهو يفيد بدلالة الاسمية رسوخ سكون قلب المؤمن بالله تعالى { قلبه مطمئن }، واستقرار أهل القرية { آمنة }، وقرار الملائكة على الأرض على فرض نزولهم { مطمئنين }، ويقين النفس المؤمنة الراجعة إلى الله تعالى {المطمئنة}، وكأنه يشير إلى استقرار السكون داخل القلب المطمئن أو الشيء المطمئن فأصبح ثابتاً كالأرض المطمئنة، فهو سكون زائد على سكون معنى الأمن يصل إلى حد اليقين، كما اتضح. وسياق الوصف المشتق هنا يخالف سياق الربط على القلب وإنزال السكينة والأمن التي وردت أفعالا، فصيغة المشتق "مطمئن" تفيد تحقق سكون القلب، وتراكيب الربط على القلب، وجعل وتمكين الأمن، وإنزال السكينة تصف كيفية تحقق أفعالها، فهي مع الأمن نفي لأسباب الخوف والقلق على الأرواح والمصالح، ومع الربط تدارك لفزع وخوف شديد، ومع السكينة تنزُّل لروح من الله تعالى يثبت المنزل عليه.

ومما يلحظ أن أغلب آيات الطمأنينة أثبتت فيها الطمأنينة للقلب، في حين أثبتت السكينة للقلب مرة واحدة، ولعل هذا يرجع إلى أن لفظ السكينة يوحي بكونها في القلب، في حين أن الاطمئنان قد يوصف به سكون الأجسام كما ذكر الطاهر بن عاشور(١).

---

(١) ينظر الطاهر بن عاشور ج ٣ ص ٣٩ .

التثبيت:

يقول ابن فارس : " الثاء والباء والتاء كلمة واحدة وهي دوام الشيء "(١) وجاء في قوله ﷻ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠] ، ونقل ابن منظور عن الزجاج أنه قال: " معنى تثبيت الفؤاد تسكين القلب – ههنا – ليس للشك، ولكن كلما كان البرهان والدلالة أكثر على القلب كان القلب أسكن وأثبت أبداً كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾"(٢)، فهو يصرح بمعنى سكون القلب ويشير إلى التقائه في أصل المعنى مع الاطمئنان، وقريب منه معنى التثبيت في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[الفرقان: ٣٢] إذ التثبيت يعني سكون القلب ويلتقي مع الأمن والاطمئنان والسكينة، ولكنه يختلف عنها في أن التثبيت دعم لسكون موجود يراد ترسيخه، فالرسول ﷺ ساكن القلب لربه، ويزيد القرآن سكون قلبه ترسيخا، وقريب منه تثبيت المنفقين أنفسهم بالصدقة الذي فسّره الرازي بالاطمئنان في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[البقرة: ٢٦٥] حيث قال: " إذا كان إنفاق العبد لأجل عبودية الحق لا لأجل غرض النفس وطلب الحض(٣) فهناك اطمأن

---

(١) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ج ١ ص ٣٩٩ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب ج ٢ ص ١٩ .

(٣) هكذا في الكتاب و لعلها "الحظ".

قلبه واستقرت نفسه "(١)، فالتثبيت لا يفيد إثبات السكون فحسب، وإنما يفيد ترسيخه بدلالة صيغة التفعيل(٢)، وهذا حال المنفق في سبيل الله، وكذلك اتباع ما جاء به القرآن من الهدى والرشاد، حيث ذكر الزمخشري في آية النحل: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾[النحل: ١٠٢] أنه تعالى: " حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب "(٣)، وفسره الشوكاني برسوخ عقائدهم(٤). وقد يرد اعتراض على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾[الأنفال: ١٢]؛ لأنه في موقف معركة يغلب فيها الخوف، ولكن تفسيرهم للتثبيت بأنه تقوية قلوبهم وتصحيح عزائمهم(٥)، يوحي بأنهم أقدموا على الجهاد غير خائفين فقوّى التثبيت قلوبهم.

وقريب منه تثبيت القدم في المعارك الناتج عن سكون القلب ؛ لأن ثبات القدم من ملزوماته، وورد في عدة مواضع منها قوله: ﴿وَثَبِّتۡ

---

(١) الرازي ج٧ ص ٥٦، و ينظر أيضا ج١١ ص ٨٦.

(٢) ينظر أ. أحمد الحملاوي : شذا العرف في فن الصرف، ط١٦، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥م، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر ص٤٣ وَ ٧٣ .

(٣) الزمخشري ج٢ص٥٩٢، و ينظر أبو السعود ج٥ ص ١٤١ .

(٤) ينظر الشوكاني ج٣ ص ١٩٤ .

(٥) ينظر الشوكاني ج ٢ ص ٢٩١ .

أَقْدَامَنَا﴾[البقرة: ٢٥٠] ،الذي ذكروا في معناه أنه إزالة الخوف عن القلوب وتقويتها(١)، وقوله ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾[آل عمران: ١٤٧]، الذي ألمح ابن عطية فيه إلى معنى (الكناية) حين قال: " ﴿ ثبت أقدامنا ﴾ يراد ثبوت القدم حقيقة في مواقف الحرب"(٢)، فثبات القدم كناية عن سكون القلب ورباطة الجأش؛ لأنه من ملزوماته ودليل عليه، فالثبات في مواطن الحرب وعدم الانهزام من دلائل القلب الساكن القوي الآمن(٣).

ومع أن الطبري رفض القول إن معنى ثبات القدم الاطمئنان ورباطة الجأش في آية الأنفال(٤)، إلا أنه وافق عليه في آية البقرة: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٥٠] فقال: " قوله: "وثبت أقدامنا" يعني: وقوِّ قلوبنا على جهادهم لتثبت أقدامنا فلا ننهزم عنهم"(٥)، فثبات الأقدام هنا يفيد أنهم يطلبون لقلوبهم الساكنة لصدق يقينهم مع الله قوة وترسيخاً.

---

(١) ينظر الرازي ج ٩ ص ٢٤، في تفسير آية البقرة و آل عمران .

(٢) ج ١ ص ٥٢٢ .

(٣) ينظر الزمخشري ج ٢ ص ١٩٤، و ينظر الرازي ج ١٥ ص ١٠٨، أبو السعود ج ٤ ص ٩ – ١٠ .

(٤) ينظر الطبري ج٩ ص ١٩٧ .

(٥) ج٢ ص٦٢٥ .

نفي الخوف:

ونفي الخوف يعني إثبات سكون القلب، وورد جملة اسمية: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، وورد جملة فعلية منفية: (لا يخاف)، ومجزومة بلا الناهية: (لا تخف)، والجملة الاسمية تفيد نفي جنس الخوف نفياً قاراً كما ذكر الطاهر(١)، لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات في أربعة عشر موضعا، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] وقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾ [البقرة: ٢٦٢] ، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)﴾ [البقرة: ٢٧٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)﴾ [البقرة: ٢٧٧] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)﴾ [المائدة: ٦٩] ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨)﴾ [الأنعام: ٤٨] ، وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥)﴾ [الأعراف: ٣٥] ،

---

(١) ينظر ج١ ص ٥٤٠ .

وقوله تعالى: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾[الأعراف: ٤٩] ، وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾[يونس: ٦٢ - ٦٤] ، وقوله تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[الزخرف: ٦٧ - ٦٨] ، قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[الأحقاف: ١٣] وجاء نفي الحزن عن الخوف في قوله تعالى ﴿ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وذكر أبو حيان مجموع المعاني المذكورة في معنى قوله ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ فقال: " وحكي عن المفسرين في تفسير هذه الجملة أقوال :

أحدها : لا خوف عليهم فيما يستقبلون من العذاب ولا يحزنون عند الموت.

الثاني : لا يتوقعون مكروهاً في المستقبل، ولا هم يحزنون لفوات المرغوب في الماضي، والحال.

الثالث : لا خوف عليهم فيما يستقبلهم، ولا هم يحزنون فيما خلفه.

الرابع : لا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا.

الخامس : لا خوف عليهم من عقاب، ولا هم يحزنون على فوات ثواب.

السادس : أن الخوف استشعار غم لفقد مطلوب، والحزن استشعار غم لفوات محبوب.

السابع : لا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الدنيا، ولا هم يحزنون على ما فاتهم منها.

الثامن : لا خوف عليهم يوم القيامة، ولا هم يحزنون فيها.

التاسع : أنه أشار إلى أن يدخلهم الجنة التي هي دار السرور والأمن لا خوف عليهم فيها ولا حزن.

العاشر : ما قاله ابن زيد: لا خوف عليهم أمامهم؛ فليس شيء أعظم في صدر الذي يموت مما بعد الموت، فأمنهم الله منه ثم سلاهم عن الدنيا، فقال: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوه بعد وفاتهم في الدنيا.

الحادي عشر : لا خوف حين أطبقت النار، ولا حزن حين ذبح الموت في صورة كبش على الصراط فقيل لأهل الجنة والنار خلود لا موت.

الثاني عشر : لا خوف ولا حزن على الدوام.

وهذه الأقوال كلها متقاربة، وظاهر الآية عموم نفي الخوف والحزن عنهم لكن يخص بما بعد الدنيا "(١)، ويذهب الرازي مثل أبي حيان في القول باختصاص نفي الخوف بما بعد الدنيا إذ يقول: " هذا يدل على أن المكلف الذي أطاع الله لا يلحقه خوف في القبر، ولا عند البعث، ولا عند حضور الموقف، ولا عند تطاير الكتب، ولا عند نصب الموازين، ولا عند الصراط،

---

(١) أبو حيان ج ١ ص ٣٢٣ – ٣٢٤ .

كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]"(١)، ولكنه يثبت حصول خوف عارض لا يعتد به (٢).

ويرى ابن عطية(٣) ومثله أبو السعود والشوكاني(٤) بخلاف جمهور المفسرين أن نفي الخوف والحزن في الدنيا والآخرة، ويؤيد الشوكاني رأيه بدلالة وقوع النكرة في سياق النفي فيقول: " قوله: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ ظاهره نفي الخوف عنهم في الدارين؛ لما تفيده النكرة الواقعة في سياق النفي من الشمول "(٥)، ويؤيده قراءة من قرأ بفتح الفاء ﴿ لا خوفَ﴾ على أن لا نافية للجنس. ويرى أبو السعود أن معنى انتفاء الخوف أي: لا يعتريهم ما يوجبه فيقول: " ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ في الدارين من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ من فوات مطلوب؛ أي: لا يعتريهم ما يوجب ذلك، لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون، ولا أنه لا يعتريهم نفس الخوف والحزن أصلا... كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته، واستقصاراً للجد والسعي في إقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص

---

(١) الرازي ج ٣ ص ٢٦ .

(٢) الرازي ج ١٢ ص ٤٦ آية المائدة . ٦٩.

(٣) ينظر ابن عطية ج ١ ص ١٣٢ .

(٤) الشوكاني ج ١ ص ٢٨٤ آية البقرة ٢٨٤ .

(٥) الشوكاني ج ١ ص ٢٨٤ آية البقرة ٢٦٢ .

والمقربين، والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما "(١)، ولعل أبا السعود قصد – حين قال : لا يعتريهم ما يوجب ذلك في الدارين – إلى ما في قلب المؤمنين من السكون إلى أقدار الله تعالى في الدنيا، وما يرون من رحمة الله ورأفته بهم يوم القيامة، ولكنهم يخافون من تقصيرهم في حق الله جل جلاله استعظاماً لقدره وهيبته.

ويشرح هذا المعنى بذكر الحكمة التي تمنع ما يوجب الخوف في موضع آخر فيقول : " وإنما لا يعتريهم ذلك لأن مقصدهم ليس إلا طاعة الله تعالى، ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى؛ وذلك مما لا ريب في حصوله ولا احتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة إليه تعالى، وأما ما عدا ذلك من الأمور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهي بمعزل من الانتظام في سلك مقصدهم وجوداً وعدماً حتى يخافوا من حصول ضارها أو يحزنوا بفوات نافعها "(٢)، ومع حسن التفسير إلا أن القول بالوجوب على الله (بموجب الوعد) عكر حسنه، وأحسن منه قول الشوكاني: " فهم على ثقة من أنفسهم وحسن ظن بربهم، وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب؛ لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره؛ فيسلمون

---

(١) ج ١ ص ٩٣.

(٢) أبو السعود ج ٤ ص ١٥٨ – ١٥٩ آية يونس ٦٢ .

للقضاء والقدر، ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر، فصدورهم منشرحة، وجوارحهم نشطة وقلوبهم مسرورة "⁽¹⁾.

وبالتأمل في الآيات يستوقفنا أن نفي الخوف لم يكن عنهم وإنما عليهم. وتوقف أبو حيان والبقاعي عند لفظ (عليهم) فنفوا بها استعلاء الخوف، وأجازوا وجوده خشيةً لله واستعظاماً لحقوقه، أي: أن المنفي الخوف الغالب المستعلي، فذكر أبو حيان أنه: " كنى بقوله {عليهم} عن الاستيلاء والإحاطة. ونزل المعنى منزلة الجرم، ونفى كونه معتلياً مستولياً عليهم، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أن الخوف لا ينتفي بالكلية، ألا ترى إلى انصباب النفي على كينونة الخوف عليهم، ولا يلزم من كينونة استعلاء الخوف انتفاء الخوف في كل حال، ولذلك قال بعض المفسرين: ليس في قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على نفي أهوال يوم القيامة وخوفها عن المطيعين لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة إلا أنها مخففة عن المطيعين فإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا "⁽²⁾، وقريب منه قول البقاعي: " ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من آتٍ يستعلي عليهم من جميع الجهات "⁽³⁾، و" ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من طارق يطرقهم بغير ما يلائمهم؛ لأنهم في كنف العزيز العليم "⁽⁴⁾، و" ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾

---

(1) الشوكاني ج ٢ ص ٤٥٧ آية يونس ٦٢ .

(2) أبو حيان ج ١ ص ٣٢٣ .

(3) البقاعي ج ١ ص ٤٥٨ آية البقرة ٦٢، و ينظر ج ٢ ص ١١٤ في آية البقرة ١١٢ .

(4) البقاعي ج ٤ ص ١٣٧ البقرة ٢٧٧، و ينظر ص ٧٧ في آية ١٦٢ .

أي: غالب ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: بسبب ذلك من شيء يتوقعونه "(١). وواضح أن الاستعلاء – هنا – للخوف الغالب المستعلي على الإنسان من جميع الجهات.

غير أن البقاعي تنبه إلى دلالة نفي الخوف عليهم إلى أنه من غيرهم، فنقل عن الحرالي قوله: "وجاء في الحزن بلفظ (هم) لاستبطانه، وبالفعل لأنه بادٍ من باطن تفكرهم في فائتهم، وصار نفي الخوف منعزلا عن فعلهم لأنه من خوف بادٍ عليهم من غيرهم "(٢)، ومثله الألوسي حين نقل عن " بعض الناس أن العدول عن: "لا خوف لهم" أو "عندهم" إلى (لا خوف عليهم) للإشارة إلى أنهم قد بلغت حالهم إلى حيث لا ينبغي أن يخاف أحد عليهم"(٣)، وعدم خوف غيرهم عليهم يفيد امتداد سكون القلب خارج دائرة المذكورين، فسكون قلوبهم يبث السكون إلى قلوب أوليائهم فلا يخافون عليهم. وهيئة المعنى بنفي الخوف عليهم تختلف عن سابقاتها من هيئات وصف سكون القلب، فهي مرتبة أكثر اتساعاً وأبعد مدى إذ توحي بسكون قلوبهم واستقرارها حيث لا تزعزعها الأحداث ولا تفزعها المخاوف، وما ذلك إلا لأن موجبات الفزع لا تعتريهم كما قال أبو السعود. وألمح فيها إشارة إلى ضمان إلهي ببلوغهم غاية النعيم لأنها كناية عن حسن حالهم على غرار قول القائل عند ضمانه لشخص ما: (فلان لا تخش عليه) أي ليس هناك ما يدعو للخوف عليه.

---

(١) البقاعي ج ٧ ص ٣٩٤ .

(٢) البقاعي ج ١ ص ٣٠٠ .

(٣) الألوسي ج ١ ص ٢٣٩ .

وجاء نفي الخوف بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾ [طه: ١١٢] ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣﴾ [الجن: ١٣] ، فانتفاء الخوف يثبت سكون القلب سكونا متجددا بدلالة المضارع، دون الثبوت والدوام، مع ما تفيده (لا) من امتداد زمن النفي كما يقول السهيلي: "فحرف (لا) لام بعدها ألف يمتد بها الصوت ما لم يقطعه تضييق النفس ، فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها "(١) وكأن اجتماع امتداد نفي الخوف مع تجدد حدوث هذا النفي بجواب الشرط (فلا يخاف) يقابل حدوث فعله؛ فبقدر ما يعمل المؤمن من الصالحات ، وبقدر ما يجد إيمانه بربه يجد سكوناً وأمناً لقلبه من هواجس الصدر و نزغات الشياطين.

ومن صياغات إثبات سكون القلب النهي عن الخوف في نحو قوله تعالى ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠] ، وقوله تعالى: ﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١﴾ [طه: ٢١] ، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾ [هود: ٧٠]، وقوله: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٧ - ٦٨]، وقوله: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١] ، وقوله: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ

---

(١) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي ت ٥١٨ هـ: نتائج الفكر في النحو ص ١٣٠-١٣١ .

﴿٣٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٣] ، وقوله ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٥ - ٤٦]، وقوله: ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص: ٧] ، وقوله: ﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡ ﴾ [ص: ٢٢] ، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٥]، فالنهي عن الخوف تسكين للقلب بطلب الكف عن ضده وهو الخوف بعد حصوله، ويلتقي في هذا مع الربط على القلب غير أنه هنا إنشاء لمعنى السكون، وفي الربط تدارك للخوف الشديد الذي يكاد يذهب بالعقل ليسكن، ويلتقي مع سياق الاطمئنان الذي يعقب للخوف لكنه لا يشاركه معنى رسوخ السكون، ولا يفيد المبالغة والدوام التي يحملها الاطمئنان والتثبيت، ومن هنا جاء عقب النهي عن الخوف ما يؤكد هذا الأمر بما يوجب ترسيخ السكون، وهو ما ذكره الرازي في نهي الملائكة للوط عليه السلام عن الخوف " فإن مجرد قول القائل: "لا تخف" لا يوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم: إنا منجوك وأهلك وإنا منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له أنهم ملائكة فيطول ذرعه ويزول روعه "(١)، وهو ما اطرد في الآيات كلها في هذا السياق، فبعد كل نهي عن الخوف ذكرت حكمة لذلك، وهو أسلوب بليغ الأثر ، متبع كثيرا في الكلام الفصيح وفي القرآن يسمى الاستئناف

---

(١) الرازي ج ٢٥ ص ٥٥ آية العنكبوت ٣٣ .

البياني(١). ولعلنا نلحظ فرقا بين سكون القلب بنفي الخوف في الجملة الاسمية مما قد يشير إلى عدم وقوعه، وسكون القلب بانتفائه بلا النافية مع الفعل المضارع الذي يفيد امتداد هذا السكون لامتداد نفي الخوف، والنهي عن الخوف الذي يشير إلى سكون عقب وقوع الخوف يؤكِّد بما يضمنه.

ومما هو جدير بالذكر اقتران نفي الخوف أو النهي عنه بنفي الحزن أو النهي عنه.

ويؤكد هذا الارتباط قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء ١٠٣]، الذي نفى الحزن عن القلب في حال الخوف ، وفي كتب علم النفس ما يثبت ذلك، فهم يعرفون القلق بقولهم: " حالة توتر شامل ومستمر نتيجة توقع تهديد خطر فعلي أو رمزي قد يحدث، ويصاحبها (شعور)(٢) غامض وأعراض نفسية جسمية، ويكون المريض وكأن لسان حاله يقول: شاعر بمصيبة قادمة"(٣)، ومن أهم أعراضه الهم والكدر(٤)، فالقلق يجمع حالي

---

(١) ينظر شروح التلخيص ج١ص٢١٠ و ما بعدها في باب أحوال الإسناد، و ج٤ ص ٦٢ و ما بعدها في باب الفصل و الوصل.

(٢) الكلمة بين قوسين غير موجودة في الكتاب و بها يستقيم المعنى .

(٣) د. حامد عبد السلام زهران : الصحة النفسية و العلاج النفسي، ص٤٨٥، و ينظر د. محمد عودة محمد،د. كمال إبراهيم مرسي : الصحة النفسية في ضوء علم النفس و الإسلام ص١٨٧،د. محمد حسن غانم : الأمراض النفسية للشخصية (دراسات إكينيكية لحالات عربية) ص٤١ و ما بعدها .

(٤) ينظر د. زهران ص٤٨٧،د. غانم ص٤٠ و ما بعدها .

الحزن والخوف، ولأن الإنسان عادة يكون بين أمرين: ماض قد ولى ، ومستقبل ينتظره، فالحزن كما قيل: هو غم لفوات محبوب ، والخوف استشعار غم لفقد مطلوب ، فتحقق الأمن بسكون القلب يكون بالجمع بين نفي الغمين.

الخاتمة

هدف هذا البحث إلى التجديد في البحث البلاغي تجديدا يولد من رحم البلاغة ويبنى على أصولها. وقد أشار بعض علماء اللغة والبلاغة إلى الفروق بين معاني المترادفات، وامتد بعضهم إلى إدراك الفروق بين مترادفات التراكيب - إن صح التعبير - وهيئات معانيها، وامتدت هذه الدراسة شوطاً آخر لتدرس وتبين الاختلاف بين هيئات معاني الألفاظ والتراكيب المختلفة لغرض واحد هو سكون القلب في القرآن الكريم، فتتبعت هذه الألفاظ والتراكيب في سياقاتها لتتبين الفروق بينها، من جهة إثبات المعنى وتوكيده، وتحديد مجاله واتساعه بحيث يطلب كلا من هذه الألفاظ والتراكيب سياق خاص، ويدل على درجة من السكون غير الأخرى، وطبيعة تختلف منفياتها عن الأخرى. وهذا يثبت أن ذكر أحد الألفاظ التي تصف سكون القلب في معنى الأخرى إنما هو على التسامح ولتوضيح الغرض العام وحسب.

فالأمن سياج من سكون القلب يمكن به للناس والأماكن قبل أن تفزعها الأحداث أي بنفي أسباب هذا الفزع، ولذلك أتى في بيان استقرار أهل بيت الله الحرام، وقوم ثمود، وسبأ قبل تكذيبهم لأنبيائهم، والربط على القلب سكون يتدارك القلوب الفزعة، ولا يحدث إلا بعد خوف شديد، وهذا غير موجود في سياق هيئة معنى الأمن، أما السكينة فهي معجزة للسكون ينزلها الله تعالى على قلوب أوليائه على وجه يعلمه وحده، فهي

تلتقي مع الربط في كونها سكون قلب داخلي، وتفترق عنه في كونها سكوناً خارقاً للعادة تتنزل على الأنبياء والأولياء لتثبت سكون قلوبهم الحاصل، ويأتي الاطمئنان ليشير إلى درجة من السكون راسخة تقترب من العيان متمكنة تمكن المطمئن من الأرض، تضاهي اليقين الذي يزيل خواطر ونزغات الشياطين، ويسكن القلوب الوجلة خشية لله. أما التثبيت فهو سكون قوة للقلوب الواثقة بالله. ونفي الخوف في الجملة الاسمية إثبات للسكون القار، إلا أن تعليقه بالجار والمجرور (عليهم) ينقله إلى مدى واسع يمتد من أهل الجزاء إلى أوليائهم، ونفيه بصيغة المضارع يفيد تجدد النفي مع امتداد زمنه المشار إليه بامتداد الصوت في ألف (لا) النافية، والنهي عنه طلب الكف عن حصوله، ولأن هذه المرتبة لا تزيل الخوف تماماً أكدت بما يبعث على الأمن في النفس فيما يسمى الاستئناف البياني.

وأترك هذه الآيات وفي النفس لمعرفة معناها المقصود مطمع متمثلةً بقول الرازي : " ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة ، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها ، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلا "⁽¹⁾، ويقول : " لما كان المتكلم أحكم الحاكمين فلا بد لهذه التغييرات من حكم وفوائد ، فإن أدركنا تلك الحكم فقد فزنا بالكمال ، وإن عجزنا أحلنا القصور على عقولنا لا على كلام الحكيم والله أعلم "⁽²⁾.

---

(١) ج ٢٥ ص ٥٥ .

(٢) الرازي ج ٣ ص ٩٨ آية البقرة ٦٢ .

المراجع

١. ابن الأثير : نجم الدين أحمد بن الأثير الحلبي : جوهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة، تحقيق : محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالاسكندرية .

٢. ابن عاشور : الإمام محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤م .

٣. ابن فارس : أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا : معجم مقاييس اللغة، تحقيق : عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية – إيران، د.ت.

٤. ابن قيم الجوزية : تهذيب مدارج السالكين، هذبه : عبد المنعم صالح العلي العزّي، ط٦، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

٥. ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء : تفسير القرآن العظيم، أشرف على طبعها وتصحيحها لجنة من العلماء، دار الأندلس – بيروت، ط١، ١٣٨٥هـ- ١٩٦٦م .

٦. ابن منظور : الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري : لسان العرب، دار صادر- بيروت، ط١، د.ت.

٧. أبو السعود : محمد بن محمد العمادي أبو السعود : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٢، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م .

٨. الأصفهاني : الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن، تحقيق : محمد الكلاني، مكتبة مصطفى حلبي – القاهرة ١٣٨٨١هـ-١٩٦١م .

٩. آل عايش : د. عبد الله بن حلفان آل عايش : التربية الأمنية في الإسلام، دار المحبة، دمشق، دار آية، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م .

١٠. الألوسي : العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط٤، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م .

١١. الأندلسي : القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٥هـ– ١٩٧٥م .

١٢. الأندلسي : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي : البحر المحيط، تحقيق: الشيخ علي معوض، وشاركه : د. زكريا النوتي، د. أحمد الجمل، دار الكتب العلمية – لبنان، ط١، ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م .

١٣. البقاعي : برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ– ١٩٩٢م، المكتبة التجارية – مكة المكرمة .

١٤. البيضاوي : تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ضمن حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي، المكتبة الإسلامية – محمد ازدمير ديار بكر – تركيا .

١٥. الجرجاني : الإمام أبو بكر عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، تحقيق : محمود شاكر، طبعة المدني بمصر ودار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

١٦. الخطابي : أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي : بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق : د. محمد خلف الله و د. محمد زغلول سلام، دار المعارف ط٣، د.ت.

١٧. د. محمد عودة محمد، د. كمال إبراهيم موسي : الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام، دار العلم، ط٤، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م .

١٨. الرازي : فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي : التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣، د.ت.

١٩. الزركشي : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف – بيروت، د.ت.

٢٠. الزمخشري : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق : عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث – بيروت .

٢١. الزمخشري : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق ودراسة : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوّض، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م،مكتبة العبيكان – الرياض.

٢٢. زهران : د. حامد عبد السلام زهران : الصحة النفسية والعلاج النفسي، عالم الكتب، ط٣، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م .

٢٣. السهيلي : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي : نتائج الفكر في النحو، تحقيق : د. محمد إبراهيم البنا، دار الرياض للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م .

٢٤. سيبويه : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قمبر : كتاب سيبويه، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣ – ١٩٨٣م.

٢٥. السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : الإتقان في علوم القرآن، دار الندوة الجديدة – بيروت، ١٣٧٠هـ- ١٩٥١م .

٢٦. شروح التلخيص، دار السرور، بيروت - لبنان .

٢٧. الشوكاني : محمد بن علي بن محمد الشوكاني : فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير .

٢٨. الطبري : محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن، دار الفكر – بيروت ١٤٠٥هـ .

٢٩. غانم : د. محمد حسن غانم : الأمراض النفسية للشخصية (دراسة إكينيكية لحالات عربي) المكتبة المصرية ٢٠٠٤م .

٣٠. الفيومي : أحمد بن محمد علي الفيومي المقري : المصباح المنير، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م .

٣١. القرطبي : أبو عبد الله محمد الأنصاري القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، صححه : أحمد عبد العليم البردوني، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٣٧٢هـ- ١٩٥٢م .

٣٢. المكتبة الألفية للسنة النبوية (أكثر من ٣٥٠٠ مجلد حاسوبي)، الإصدار ٣.٠

٣٣. الموسوعة الذهبية للحديث النبوي الشريف وعلومه، الإصدار الثالث، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، عمان – الأردن.